معالم الفكر التربوي عند محمد رشيد رضا
(في الطبيعة الإنسانية والعلم والتعليم والتربية)

إعداد
د/ عبد العزيز بن عبد الرحمن المحيميد
أستاذ التربية الإسلامية المشارك
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

معالم الفكر التربوي عند محمد رشيد رضا
(في الطبيعة الإنسانية والعلم والتعليم والتربية)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فإن الحياة السوية للأفراد والجماعات هي –ولابد– نتيجة مباشرة لجهود ومراحل من التنشئة والتربية التي تتعاهد الإنسان منذ وجوده؛ بل حتى قبل وجوده حينما يكون جنينا في بطن أمه؛ بل حتى قبل ذلك عند التفكير بتكوين المحضن الذي ينشأ فيه؛ وعند اختيار أمه؛ التي ستتولى تنشئته وتربيته مستقبلا، وذلك بالتعاون مع أبيه في تعاهده والعناية به من جوانب عديدة؛ بعضها يكون دور الأم فيها واضحا، وبعضها الآخر يكون دور الأب فيها أوضح، وهكذا إلى أن يدخل معهما على خط التربية مؤسسات أخرى تتولى بعض الأدوار التربوية المتعلقة بمراحل عمرية أخرى؛ حيث تبدأ تأثيرات المدرسة والمسجد ووسائل الإعلام والأندية الاجتماعية والثقافية، وتبدأ تأثيرات المجتمع والشارع وجماعة الرفاق وغيرهم.

والأسرة والمدرسة وغيرها من المؤسسات التربوية التي تقوم بدور ميداني في التربية لا تصدر وجودها وأنشطتها من فراغ؛ أو ينبغي أن لا تصدر في ذلك من فراغ؛ بل ينبغي أن تبني تطبيقاتها الميدانية على خلفية علمية من الفكر التربوي الصحيح؛ ومن هنا اكتسبت برامج الإعداد التربوي أهميتها لتأهيل الأفراد للقيام بأدوارهم التربوية بشكل فعال يؤدي إلى إمداد المجتمعات بأجيال من الأسوياء الأصحاء الذين يقودونها نحو الخير والرقي والتقدم.

وقد عنى كثير من العلماء والمفكرين في السابق والحاضر بمعالجة قضايا التربية وبيان وظائفها ومهامها وطرائقها ووسائلها وأساليبها وعوائقها وأسباب النجاح فيها مع عوامل الإخفاق في تحقيقها لأهدافها، وما يتعلق بذلك كله.

ومن العلماء الذين كان لهم إسهام واضح في ذلك الشيخ محمد رشيد رضا عليه رحمة الله، فقد كانت التربية وشؤونها هما يحمله بين جوانحه ودورا يمارس تطبيقه وفكرا يسيل به قلمه، وكانت التربية والتعليم منهجا للإصلاح يرسمه فعلا وقولا وكتابة، فقد دعا إلى العناية بالتربية والتعليم بصفتها طريقا للإصلاح؛ ولم يكتف بذلك فباشر بنفسه العمل الميداني تدريسا ومحاضرة وإنشاء للمعاهد والمدارس، وكتب العديد من المقالات في نقد الممارسات التعليمية الشائعة في وقته، وألف في الموضوع بعض الكتب.

ومع أن كثيرا من الدراسات والتحليلات قد كتبت حول محمد رشيد رضا حياته وفكره ومنهجه وجهوده ومواقفه من الأحداث والأشخاص والحركات في زمنه؛ إلا أن فكره التربوي لا زال بحاجة إلى دراسة وبحث؛ وهناك بعض الدراسات حول الموضوع سيأتي السياق على ذكرها في الدراسات السابقة؛ إلا أن كتاباته الكثيرة المتفرقة حول موضوعات التربية لا زالت بحاجة إلى مزيد عناية وبحث؛ لأن الدراسات السابقة لم تستوعب كل ما كتب بالدراسة والتحليل.

ومن هنا جاء اختيار موضوع هذا البحث ليلبي هذه الحاجة، وهو بعنوان: " معالم الفكر التربوي عند محمد رشيد رضا في الطبيعة الإنسانية والعلم والتعليم والتربية" وستكون دراسة الموضوع من خلال ما كتب هو نفسه حول موضوعات التربية بشكل مباشر؛ حيث نأخذ فكره من أقواله مباشرة، ولا نعتمد في ذلك على ما قاله غيره عنه، فهذا من حقه علينا، وهذا هو مقتضى الأمانة العلمية، حتى لا ننسب له ما لم يقله، وأيضا لا نحمل أقواله أكثر مما أراده منها، ولا نفسرها تفسيرا يبعد بها عما قصده منها؛ نسأل الله الإعانة في ذلك وغيره.

مشكلة الدراسة:

تكمن مشكلة الدراسة في الإجابة عن السؤال الرئيس التالي:

- ما أهم معالم الفكر التربوي عند محمد رشيد رضا؟

وينبثق عن هذا السؤال الأسئلة الفرعية التالية:

- ما أهم معالم فكره التربوي فيما يتعلق بالطبيعة الإنسانية؟
- ما أهم معالم فكره التربوي فيما يتعلق بالعلم والتعليم؟
- ما أهم معالم فكره التربوي فيما يتعلق بالتربية؟

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى ما يلي:

1- التعرف على الفكر التربوي لأحد العلماء الذين كان لهم دور واضح في التوعية والإصلاح والتعليم؛ وهو محمد رشيد رضا.

2- إبراز تراثه الفكري التربوي وتحليله ومعرفة جوانب القوة ولضعف فيه للاستفادة منه في الدراسات التربوية المعاصرة.

3- تقريب فكره التربوي للباحثين في التربية الإسلامية وتعريفهم على مصادر هذا الفكر ومظان وجوده.

4- إعادة قراءة هذا الفكر وفق منظور تربوي إسلامي معاصر يجمع بين الأصالة والمعاصرة ويأخذ بالحسبان الثوابت والمستجدات في ميدان التربية.

5- التعرف عن كثب على قضايا التربية والتعليم وأحوالهما وشؤونهما وأهم التحديات والعوائق التي كانت تعترض سبيل الإصلاح التربوي في الفترة التي كتب فيها هذا الفكر.

أهمية الدراسة:

تظهر أهمية هذه الدراسة من خلال أهمية موضوعها؛ وهو التربية والتعليم؛ وهما سبيل صلاح الأفراد وكرامتهم ورقي المجتمعات ورفعتها؛ وفضل العلم والتعليم من بدهيات الدين التي يثاب عليها المرء بأعظم الأجر؛ والدراسة تتعلق بالتربية والتعليم عند علم من الأعلام البارزين والدعاة المؤثرين؛ وقد ترك لمن بعده فكرا ثريا يتناول فيه آراء الناس وممارساتهم واجتهاداتهم ومعالجتهم للتربية وشؤونها والتعليم وفنونه؛ وهو فكر لم ينل حظه من الدراسة والبحث؛ وهذا ما تحاول هذه الدراسة المساهمة في تلافيه وتداركه؛ وهو ما يوضح أهميتها.

مصطلحات الدراسة:

التربية: "عملية شاملة يتم بها الانتقال بالفرد أو المجتمع من الواقع الذي هو عليه إلى المثل الأعلى الذي ينبغي أن يكون عليه" (الشدوخي، البيان، عدد 173، محرم 1423هـ، ص 24)، وهذا التعريف يناسب أن يكون تعريفا للتربية الناجحة.

التعليم: " هو مجموعة من الأنشطة والإجراءات التي تنتقل بواسطتها العلوم والمعارف والخبرات والمهارات من طرف إلى آخر، الطرف الأول هو المعلم أو المرسل أو الملقي، والطرف الثاني هو المتعلم أو المستقبل أو المتلقي.

الفكر التربوي: يقصد به في هذه الدراسة أي رؤية أو فكرة أو رأي أو نظرية تتعلق بالتربية والتعليم وشؤونهما سواء كان لها انعكاس تطبيقي على الميدان أو كانت فكرة نظرية مجردة.

منهج البحث:

منهج البحث في هذه الدراسة هو المنهج الوصفي التحليلي؛ حيث يتناول الباحث الوثائق المتعلقة بالموضوع والمتمثلة فيما كتبه محمد رشيد رضا حول التربية والتعليم من مقالات وكتيبات بعضها منشور في مجلة المنار التي كان يصدرها هو بنفسه، وبعضها الآخر طبع من قبل جهات أخرى، ويتناول الباحث هذه الكتابات بالتحليل والدراسة واصفا ما تحتويه من أفكار تربوية أو آراء بديلة أو حلول لما كان التعليم يعاني منه؛ سواء كان من قبيل الأفكار أو الممارسات الخاطئة في نظره.

الإطار النظري والدراسات السابقة:

يتناول السياق الآن الإطار النظري لهذه الدراسة والدراسات السابقة عليها في معالجة الموضوع أو بعض جوانبه؛ حيث يتم بحث الموضوع من حيث انتهى الباحثون السابقون من دون إهدار الوقت والجهد في تحصيل حاصل؛ وفيما يلي الإطار النظري ثم الدراسات السابقة.

أولا: الإطار النظري:

ليس من غرض هذا البحث استقصاء تفاصيل سيرة محمد رشيد رضا أو الترجمة لحياته؛ وإنما الاقتصار من ذلك على ما يخدم غرض هذه الدراسة في تحديد إطارها النظري؛ وذلك من خلال التعريف به وبحياته العلمية ونشاطه الفكري والاجتماعي، ومؤلفاته، وعنايته بالتربية والتعليم كتابة وتأليفا وعملا، ومظان وجود فكره المتعلق بالتربية والتعليم الذي هو موضوع هذه الدراسة.

محمد رشيد رضا:

أ- ولادته ونشأته:

ولد محمد رشيد بن على رضا بن محمد شمس الدين بهاء الدين بن منلا علي خليفة البغدادي يوم 27 جمادي الأولى 1282 هـ الموافق 18 تشرين الأول 1865م في قرية القلمون من ضواحي طرابلس الشام من أسرة بغدادية هاجرت إلى لبنان واستقرت في القلمون؛ حيث ولد ابنها محمد ونشأ وترعرع (الرومي، 1401 هـ، ص 170، 172).

وقد عاش بعد ذلك نيفا وسبعين سنة كانت –أو بالأحرى أغلبها- حافلة بالعلم والتعليم والكتابة والتأليف والنشاط والرحلات والسياسة والأحداث والمواقف إلى أن توفاه الله في 23 جمادي الأول سنة 1354 هـ الموافق 22 أغسطس 1935م، آثناء عودته من رحلة إلى مدينة السويس ودع فيها الأمير (آنذاك) سعود بن عبد العزيز رحمه الله، وكان عائدا منها بالسيارة، وكان يقرأ القرآن أثناء الرحلة، وقد تعب من السفر ومعاناة ارتجاج السيارة، ثم اتكأ على ظهره في السيارة؛ فما لبث بعد ذلك أن فاضت روحه رحمه الله. (المرجع السابق، 1/ 182).

وقد ترك لمن بعده جملة من الآثار الهامة؛ تتمثل في تفسير القرآن الكريم (تفسير المنار) وقد طبع منه اثنا عشر مجلدا ولم يكمله، ومجلة المنار، وقد أصدر منها أربعة وثلاثين مجلدا، وكتاب تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في ثلاث مجلدات، وجملة من الكتب؛ منها الوحي المحمدي، ونداء إلى الجنس اللطيف، ويسر الإسلام وأصول التشريع العام،

والخلافة والوهابيون والحجاز، ومحاورات المصلح والمقلد، وذكرى المولد النبوي، وشبهات النصارى وحجج الإسلام، ومجموعة من الخطب والدروس، (الأعلام، 2007م 126/6).

ب- حياته العلمية ونشاطه الفكري والاجتماعي:

كان قبل اشتغاله بالعلم في طرابلس الشام –كما يقول عن نفسه- : " مشتغلا بالعبادة ميالا إلى التصوف" وكان ينوي بقراءته القرآن الاتعاظ بمواعظه لأجل الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا؛ ولما رأى في نفسه الأهلية لنفع الناس جلس إلى العوام في مجالس وعظ يرهبهم وينذرهم ويزهدهم في الدنيا، ثم حدثت له نقلة كبيرة في حياته؛ إذ اطلع على نسخة من جريدة "العروة الوثقى" التي أسسها كل من جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في باريس عام 1301 هـ، كانت مع أوراق والده؛ فقرأ مقالاتها وأعجب بها وبما تدعو إليه من إعادة مجد الإسلام وعزته وتحرير أوطانه وشعوبه؛ ويقول عنها: " أثرت في قلبي تأثيرا دخلت به في طور جديد من حياتي وأعجبت جد الإعجاب بمنهج تلك المقالات في الاستشهاد والاستدلال على قضاياها.....". وكاتب جمال الدين الأفغاني يبدي له رغبته في مصاحبته والتلقي عنه ولكنها رغبة لم تتحقق، وبعد وفاة الأفغاني حاول الاتصال بمحمد عبده، وتهيأت له هذه الفرصة في رجب سنة 1315هـ، بعد إتمام دراسته في طرابلس ونيله شهادة في التدريس من شيوخه فيها، حيث هاجر إلى مصر واتصل بالشيخ محمد عبده مباشرة واقترح عليه تفسير القرآن، أنشأ مجلة المنار متأثرا بما كان ينشر في العروة الوثقى من مقالات؛ إذ يقول عن تأثيرها: " يوجد كثير من المتنبهين لحالة العصر والإسلام في البلاد المتفرقة، وكثير منهم ما نبههم إلا العروة الوثقى، وأن لم أتنبه التنبه الذي أنا عليه إلا بها" ، وقد تأثر كثيرا بالشيخ محمد عبده، ومازال يحاول بالشيخ أن يعقد مجلسا لتفسير القرآن حتى استجاب لذلك مقتنعا؛ فبدأ هذا المجلس في محرم سنة 1317هـ وتوقف في محرم سنة 1323هـ عند الآية 125 من سورة النساء، وكان رشيد رضا يكتب أثناء إلقاء الدرس ما يرى أهميته في مذكرات يبيضها بعد ذلك؛ فاقترح عليه نشرها في المنار؛ فشرع في نشرها ابتداء من محرم 1318هـ، وكان يعرضها على شيخه محمد عبده قبل نشرها؛ ولما توفى محمد عبده استقل محمد رشيد رضا بالعمل على إكمال تفسير القرآن ومواصلة المشوار، ويذكر هو أنه خالف منهج شيخه في التفسير بعد وفاته" بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة؛ سواء كان تفسيرا لها أو في حكمها، وفي تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللغوية والمسائل الخلافية بين العلماء، وفي الإكثار من شواهد الآيات في السور المختلفة. وفي بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها بما يثبتهم بهداية دينهم في هذا العصر، أو يقوي حجتهم

على خصومه من الكفار والمبتدعة، أو يحل بعض المشكلات التي أعيا حلها بما يطمئن به القلب وتسكن إليه النفس....." (محمد رشيد رضا، تفسير المنار، د ت، 1/ 10-16).

ويميز دارسو سيرته بين عدة مراحل أو تحولات في حياته الفكرية ونشاطه العلمي والاجتماعي؛ إذ لم تكن حياته على وتيرة واحدة؛ ومن ذلك تقسيم محمد صالح المراكشي حياته إلى ثلاث مراحل؛ هي:

1- مرحلة الطفولة والشباب (1865م – 1898م) حيث نشأ نشأة دينية انكب فيها على كتب الفقه والتصوف؛ واشتغل بالدراسة والطلب؛ ولكنه بدأ يتوجس من شطحات الصوفية وطريقة الدراويش في أذكارهم وطقوسهم، وفي نهاية هذه المرحلة تمرد عليهم إثر تعرفه على مجلة العروة الوثقى ودخوله في طور جديد.

2- المرحلة ما بين (1989م- 1905م)؛ وهي مرحلة كانت بصحبة محمد عبده؛ حيث تأثر به كثيرا وصدرت خلالها مجلة المنار، واشتركا معا في أنشطة علمية كالدروس الملقاة من قبل محمد عبده والتي كانت تأخذ طريقها نحو النشر بعد ذلك في مجلة المنار بتحرير محمد رشيد رضا، وغير ذلك من الأنشطة.

3- المرحلة ما بين (1905م – 1935م)؛ وهي الفترة التي أعقبت وفاة شيخه محمد عبده وانتهت بوفاته هو ؛ وقد تميزت باستقلالية رشيد رضا في جوانب فكرية وعلمية واجتماعية كثيرة صرح هو بذكرها في مواضع كثيرة من كتاباته. (المراكشي، 1985م، ص 31-40).

وقريب من هذا التقسيم ما ذكره فهد الرومي؛ إلا أنه يمايز بين المرحلتين الأخيرتين؛ بأن المرحلة الثانية بصحبة محمد عبده كانت مرحلة يغلب عليها العقلانية التي حملت لواءها المدرسة العقلية الحديثة بقيادة الأفغاني ومحمد عبده، وقد سار رشيد رضا معهما في هذا الطريق؛ ثم في المرحلة الثالثة بدأ التحول الحقيقي عند محمد رشيد رضا نحو السلفية المتميزة باحتفائها بالنقل مع عدم التهوين من شأن العقل فكرا ومنهجا ودعوة انتماء، وهو يذكر تفاصيل هذا التحول مستشهدا عليه بوقائع من أقوال وآراء ومؤلفات ومواقف محمد رشيد رضا؛ فبعد وفاة محمد عبده بدأ –كما يقول فهد الرومي- التحول تدريجيا من المدرسة العقلية الحديثة إلى منهج المدرسة السلفية؛ ولكنه تحول تدريجي استمر إلى أن أدركته الوفاة رحمه الله؛ ويدل على سلفيته مظاهر عدة؛ منها:

- ما صرح به من مخالفته لمنهج أستاذه في التفسير –كما ذكرنا آنفا- حيث توسع في الاعتماد على الأحاديث الصحيحة.

- عنايته بتراث علماء السلف وطبع كتبهم في مطبعة المنار؛ كابن تيمية وابن القيم وابن عبد الوهاب، حتى نبزه خصومه بالوهابية.
- دفاعه عن السلفية عقيدة ومنهجا ودعوة من خلال مقالاته وكتبه؛ مثل كتاب "السنة والشيعة" أو "الوهابية والرافضة".
- دفاعه عن دعوة محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله– في كتابه المكون من عدة مقالات باسم "الوهابيون والحجاز"، وذب فيه عن هذه الدعوة، ووصف أتباعها بأنهم هم من يعول عليهم في الإصلاح وإعادة العزة والمكانة الضائعة.
- اتخاذه لنفسه مواقف مغايرة لما كان عليه الأفغاني ومحمد عبده في كثير من القضايا والأحداث والاتجاهات والآراء والدعوات والأشخاص؛ مما لا يتسع المجال لتفصيل القول بشأنه هنا. (الرومي، 1401هـ، 1/ 182، 183- 186).

ج– اهتمامه بالتربية والتعليم:

كان محمد رشيد رضا –رحمه الله– يحمل هم تخلف المسلمين في شتى أقطارهم؛ وكان هذا الهم يؤرقه ويذهب معه أينما ذهب؛ وكان يرى أن علة المسلمين تكمن في تأخرهم في التعليم وانحدارهم في التربية؛ وبمعنى آخر كان يرى أن حل مشكلاتهم يكون بنشر التعليم بينهم واهتمامهم بالتربية الصحيحة بجانب التعليم؛ وقد كان يدعو إلى ذلك في محافل عديدة، ويسعى لتحقيق ذلك بقدر ما وسعه الجهد؛ ومن ذلك أنه كان يكتب الخطب ويدبج المقالات ويؤلف الكتب في الحث على التعليم والتربية المهتدية بنور النبوة؛ بل كان يؤسس المؤسسات التربوية والتعليمية هنا وهناك؛ ومنها دار الدعوة والإرشاد التي كافح زمنا طويلا من أجل إيجادها وتفعيلها، وكذلك مجلة المنار؛ وقد صرح في أكثر في أكثر من موضع من كتاباته بأنه ما سعى إلى إصدارها إلا لأجل التنبيه لأهمية التربية والتعليم، والحث عليهما، والمساعدة على تأسيسهما على أسس إسلامية صحيحة؛ ومن ذلك قوله عن هدفه من إنشائها: "وغرضها الأول الحث على تربية البنات والبنين" (المنار مجلد 30ج 2 ص 115 صفر 1348 هـ)؛ وهو بهذا يكون قد سبق زمنه؛ حيث تناول قضية التربية والتعليم أو علم التربية (البيداجوجيا) في وقت قلما تحدث الناس عن هذه القضايا، وفي وقت لم يكن يوجد في اغلب الدول العربية –وربما كلها– كليات للتربية، أو معاهد للمعلمين، ولم يكن يوجد باللغة العربية مجلات تربوية أو مراكز للبحث التربوي؛ أو ما إلى ذلك، فكانت معالجته لهذه القضايا سبقا منه لغيره، وكانت مجلته المنار المجلة التربوية العربية الأولى ظهورا؛ ووصفها هنا بأنها تربوية لم يأت من فراغ؛ وإنما يتبين ذلك بحق من خلال النظر في محتوياتها ومضامينها ومعالجاتها وعدد مقالاتها المتعلقة بالتربية والتعليم وشؤونهما وقضاياهما ومشكلاتهما

ومتعلقاتهما؛ بل إنه تناول في كتاباته مصطلحات سبق بها غيره عدة عقود؛ مثل "التربية الإسلامية" و "تأصيل التربية" وما إليها. إنه رائد بحق في الاهتمام بشؤون التربية والتعليم وتوجيهها توجيها إسلاميا وتأصيل فقضاياها وأفكارها وتسديد ممارساتها وتطبيقاتها؛ وإن له علينا معشر المهتمين والمتخصصين بالتربية الإسلامية حقا ينبغي أن نوفيه ودينا يجب أن نرده؛ ولعل هذا الجهد الذي يقدمه الباحث هنا يكون خطوة في هذا الطريق تتبعها خطوات من زملاء التخصص والمحبين له تتناول بعث فكره وتراثه التربوي وتعرف بجهوده في هذا المجال.

د- فكره التربوي:

يوجد الفكر التربوي لمحمد رشيد رضا في عدة أوعية أو مصادر؛ هي مظان لوجود بعض هذا الفكر؛ حيث أنه مبثوث مفرق ضمن موضوعات أو معالجات أخرى؛ بينما البعض الآخر معروض في بعض هذه الأوعية بشكل جلي واضح؛ حيث يكون العنوان والمضمون الذي تحته كله في التربية والتعليم؛ سواء كان ذلك مقالا أو كتابا أو خطبة أو ما شابه ذلك. ومن هذه المصادر ما يلي:

1- تفسير محمد رشيد رضا؛ المسمى تفسير المنار؛ حيث أنه فسر أجزاء من القرآن وانتهى في تفسيره إلى الآية 101 من سورة يوسف، وفي توضيحاته وتقريراته حول معاني بعض الآيات كان له وقفات تربوية ونظرات حول التعليم والمعرفة والقيم والأخلاق والعلاقات الأسرية والاجتماعية.

2- فتاوى محمد رشيد رضا؛ وفي هذه الفتاوى كثيرا ما يتناول الشأن التربوي والتعليمي؛ كأن يكون السؤال يمس من قريب أو من بعيد بعض نواحي التعليمية؛ مثل السؤال عن أسباب النهوض بالأمة، أو ترقية المجتمع، أو المسؤولية الأسرية، أو ما إلى ذلك.

3- الخطب والكلمات التي تلقى في المؤتمرات والندوات المتعلقة بالتربية والتعليم.

4- الدروس العلمية التي ألقاها في بعض المحافل والجمعيات؛ مثل دروسه في جمعية شمس الإسلام، وغيرها.

5- المقالات والبحوث التي كتبها ونشرها في مجلة المنار؛ وهي كثيرة متنوعة ما بين معالجات لقضايا تربوية أو آراء ووجهات نظر أو أخبار عن مؤسسات تعليمية وتجارب تربوية هنا وهناك.

وقد طبع بعض خطبه بشكل مستقل بصيغة كتاب حمل عنوان " التربية والتعليم"؛ وهي الخطب التي ألقاها أثناء رحلته إلى الهند في عام 1330هـ الموافق 1912م لحضور "مؤتمر التربية والتعليم الإسلامي في الهند"؛ طبع هذا الكتاب باللغة العربية مع ترجمة له إلى

اللغة الأردية بعناية رشيد أحمد الأنصاري في مطبعته (المطبعة الأحمدية في عليكرة)بالهند؛ وقد تضمن هذا الكتاب خطبه في مؤتمر ندوة العلماء والكلية الإسلامية الكبرى في عليكرة، وكذلك في الكلية العربية الكبرى في ديوبند في ذلك العام.

وهذا البحث يعتمد على ما كتبه حول موضوعات التربية والتعليم؛ وكتابته حولها يغلب عليها طابع النقد التربوي وتسليط الضوء على الممارسات التربوية الخاطئة ونقدها موضحا مكمن الخطأ فيها؛ وفي الوقت نفسه يقدم البديل من الأفكار والتطبيقات التي يرى جدواها وفائدتها؛ وبالأخص من هذه الكتابات كتاب التربية والتعليم الآنف الذكر والمقالات المنشورة حول التربية والتعليم وشؤونهما في مجلة المنار.

ثانيا: الدراسات السابقة:

محمد رشيد رضا كان موضوعا لدراسات كثيرة تناولته من زوايا عديدة؛ مثل جهوده الإصلاحية، آراؤه، منهجه في الإصلاح، منهجه في التفسير....وغيرها، وحيث أن اهتماماته كانت متنوعة وكان من ضمنها الهم التعليمي والتربوي الذي كان يحمله للمجتمع المسلم في كل مكان فإن هذا الموضوع كان جديرا بالدراسة والبحث؛ وذلك لأنه بذل فيه جهدا كتابيا واضحا يتمثل في المقالات والآراء التي بثها في مجلة المنار وفي تفسير المنار كذلك، وفي مطبوعات أخرى غيرها. وهي كتابات تهتم بشؤون التربية وشجونها وقضاياها؛ وهو لم يكتف بالمقالات يكتبها حول الموضوع؛ وإنما كان له إسهام واضح في إلقاء المحاضرات والدروس المتعلقة بإصلاح التعليم وتفعيل التربية وترشيدها وإقامتها على أسس سليمة بعيدا عن السلبيات والأخطاء التي تكون ثمارها مرة على واقع الأجيال ومستقبلهم، والتي كان ينقدها نقدا تربويا صريحا ويبين آثارها في الواقع الذي كان يعايشه في مصر والمجتمعات الأخرى؛ فالتربية وشؤونها كانت قضية محورية في كتاباته ومقالاته ودروسه ومحاضراته.

ومن الدراسات التي كانت حول فكره التربوي ودعوته للإصلاح التعليمي دراستان –على حد علم الباحث– وهما:

1– دراسة السواط (1992م):

بحث قدم من قبل عبد الإله عبيد السواط إلى قسم التربية الإسلامية والمقارنة في كلية التربية / جامعة أم القرى لنيل درجة الماجستير بعنوان "الفكر التربوي عند محمد رشيد رضا" وقد اعتمد الباحث فيها على المنهج التاريخي وعلى المنهج الوصفي لتحليل الأفكار التربوية في كتابات محمد رشيد رضا، وكان يهدف في بحثه إلى التعرف على حياته والعامل التي أثرت في ثقافته وفكره. والوقوف على الأفكار التربوية التي دعا إليها. واستخلاص بعض التطبيقات

الممكن الاستفادة منها من خلال تلك الأفكار. مع تقويم هذه الأفكار قياسا إلى الفكر التربوي المعاصر. وقد طرق في بحثه الفكر التربوي عند محمد رشيد رضا فيما يتعلق بمكانة التربية والتعليم وغايتها، وأهدافها ومبادئها، ومحتوى المنهج، وأساليب التربية، وطرق التعليم، ومصادر المعرفة، وآداب العالم والمتعلم، وتربية البنات. هذا بالإضافة إلى تقييم هذا الفكر من ناحية خصائصه وموقفه من الفكر التربوي الحديث، وموقفه من السلفية والعقلانية الحديثة، وموقفه من بعض التيارات المنحرفة ومدى الاستفادة من الفكر التربوي عنده.

وكان من أبرز نتائج هذه الدراسة أن محمد رشيد رضا عاش في فترة القهر والاستعمار السياسي والعسكري للعالم الإسلامي مما كان له دور واضح في اعتماده التربية والتعليم بصفتها وسيلة ناجعة للإصلاح؛ ومن هنا جاء تركيزه على الكتابة في ميدان التربية والتعليم؛ حيث نبه إلى المبادئ والشروط اللازمة لنجاح عملية التعليم، ونبه إلى أهمية ومكانة التربية والتعليم، وأوضح بعض المبادئ الهامة المتعلقة بتربية البنات، ثم لخص الباحث في نهاية بحثه التطبيقات التي يمكن استفادتها من دراسة الفكر التربوي لمحمد رشيد رضا.

2- دراسة سعيد إسماعيل علي (2009م):

وهي ضمن بحث له بعنوان " التجديد والإصلاح في الفكر التربوي الإسلامي" قدم إلى مؤتمر اتجاهات التجديد والإصلاح في الفكر الإسلامي الحديث (19- 21/ 1/ 2009م) وطبع مع أبحاث المؤتمر من قبل مكتبة الإسكندرية؛ تناول فيه رؤية رشيد رضا للإصلاح التربوي وهوية هذا الإصلاح ونهجه ووجهته والمرجعية التي ينطلق منها (وهي كلها إسلامية) وتحديده لمجالات التربية (المجالات الجسمية والنفسية والعقلية) ونقده للتربية القائمة على حشو الذهن بالمعلومات من دون الاهتمام بالتطبيق؛ واهتمامه بالتطبيع الخلقي العملي بناء على ذلك، واستخدامه لمفهوم " التزكية" بجانب مصطلحات التربية والتعليم؛ لما يعنيه مفهوم التزكية من تطهير وتصفية للأخلاق وتسام عن الرذائل، وكذلك تعويله على "التربية" بصفتها عاملا حاسما في الإصلاح يتحقق من خلالها الترابط الاجتماعي، وفهم الدين فهما سليما بعيدا عن الجمود والاعتقادات الباطلة، ولم الشمل بعيدا عن الفرقة والتناحر، وتحقيق الوحدة الإسلامية..

وكذلك عنايته بدرجة كبيرة بالتركيز على عملية اختيار المعلمين وإعدادهم لأداء التعليم بصفته رسالة؛ لا مهنة ووظيفة فحسب، وهذا مجمل ما تناوله سعيد إسماعيل علي ضمن بحثه حل جهود الإصلاح الفكري التربوي الإسلامي عند رشيد رضا.

مناقشة الدراستين السابقتين:

هاتان الدراستان قدمتا جهدا مشكورا في عرض صورة واضحة حول الفكر التربوي والآراء القيمة لعلمنا موضوع الدراسة؛ ولكن الكتابات التربوية له من الكثرة –والتنوع بحيث أنه– في اعتقاد الباحث– لا يزعم أي من الباحثين أنه قد أتى عليها كلها بالدراسة والتحليل؛ ومن هنا فإنه لا زال هناك مكان لجهد بحثي إضافي يتطرق إلى ما لم تتناوله تلك الدراستان، وهذا ما يتضح من تأمل موضوعات مقالاته التربوية؛ حيث تناولت تلك المقالات موضوعات تتعلق بالتربية في مختلف مراحلها وشؤونها وقضاياها، والتعليم ومستوياته ومناهجه ومبادئه وطرائقه؛ وغيرها من الموضوعات التي لم تنل حقها من الدراسة والتحليل.

وبالإضافة لمقالاته المنشورة في مجلة المنار هناك كتاب له بعنوان "التربية والتعليم" كان في الأصل مشاركة له ألقاها في " مؤتمر التربية والتعليم الإسلامي في الهند" وقد عقد هذا المؤتمر بالهند عام 1330هـ الموافق عام 1912م، وقد حضره محمد رشيد رضا؛ وقد طبعت هذه المشاركة هذه المشاركة على شكل كتاب بعنوان " التربية والتعليم" في مائة وعشرين صفحة مع ترجمة أردية لها، وهي طبعة قديمة في المطبعة الأحمدية في عليكرة؛ وقد حوى هذا الكتاب كثيرا من النقد التربوي لأحوال التعليم الإسلامي في زمنه وهو بحاجه إلى بحث ودراسة.

أهم آرائه وأفكاره التربوية:

اهتم الشيخ محمد رشيد رضا بالتربية والتعليم وشؤونهما في كتاباته في مجلة المنار، وقد كتب حول هذه الموضوعات المئات من المقالات وهذه المقالات تتضمن كثيرا من آرائه وأفكاره التربوية النيرة، وهي من الكثرة بحيث لا يمكن الإحاطة بها في بحث مختصر كهذا؛ ولعل الله سبحانه وتعالى ييسر من الوقت والجهد ما يمكن معه الرجوع إلى هذه المقالات وتناولها ببحث يفي باستقصاء وتصنيف وتحليل هذه الآراء؛ ويمكن –هنا– إدراج أهم آرائه وأفكاره التربوية التي تناولتها الدراسة تحت العناوين الآتية:

أولا: في الطبيعة الإنسانية.

ثانيا: في العلم والتعليم.

ثالثا: في التربية.

وسيتناول البحث كل واحدة منها بالتفصيل فيما يأتي:

أولا: في الطبيعة الإنسانية:

الطبيعة الإنسانية:

يرد سؤال ويتكرر كثيرا في كتب التربية حول طبيعة الإنسان؛ وهل هي خيرة أم شريرة؟ وهو سؤال قديم لكثير من الفلاسفة والمربين آراء حوله، وبعضهم ذهب إلى القول بأنها طبيعة شريرة؛ وهذا كان سائدا متأثرا بنظرة الكنيسة حول الإنسان والخطيئة، وذهب بعضهم إلى العكس تماما، وقال آخرون مثل جان جاك روسو بأنها طبيعة محايدة؛ وأنها مثل الصفحة البيضاء؛ قابلة للخير كقابليتها للشر، ينقش عليها المربي ما يريد خيرا أو شرا؛ فيظهر هذا على صفحتها سلوكا يحياه الفرد المتلقي لهذه التربية.

وللشيخ محمد رشيد رضا رأي حول ذلك يفند فيه قول بعض علماء الأخلاق بأن الإنسان شرير بطبعه، وأنه يكتسب الخير بالتربية والتعليم؛ ويقول بأن هذا الرأي "باطل كمقابله وهو أن الإنسان خير بالطبع يطرأ عليه الشر من فساد التربية والتعليم" ؛ ثم يوضح رأيه في ذلك قائلا: "والحق أنه – في أصل فطرته- قابل للأمرين على السواء، وهناك مرجحات ترجح أحدهما على الآخر؛ أضعفها حالة القطر ونوع المزاج، وأقواها الوراثة والتربية والتعليم" (المنار مجلد 2ج 20 ص 155، 10/ 1/ 1317هـ).

وهو في رأيه هذا كأنه يقول بحيادية الطبيعة البشرية؛ ورأيه هذا قريب من رأي جان جاك روسو "الصفحة البيضاء"؛ بل إنه يصرح بهذا في موضع آخر إذ يقول: "لنا من نفوس هؤلاء الأطفال ألواح صقيلة قابلة لكل نقش، ومن أدمغتهم قراطيس بيضاء نظيفة مستعدة لكل رسم، فعلينا أن ننقش فيها آيات الحكمة والفضيلة، ونرسم فيها تعليم المبادئ التي تؤدي إلى الغايات الجليلة، علينا أن نعودهم على الصدق في القول والعمل، وعلو الهمة و اطراح الإهمال والكسل، إلى غير ذلك من الأعمال النافعة والخصال الرافعة؛ لتنطبع في نفوسهم الملكات الشريفة على الوجه الذي بيناه أولا" (المنار مجلد 2ج 30 ص 470، جمادي الآخرة 13187هـ).

ولكن النصوص المتضافرة من القرآن والسنة تدل على أن الإنسان فطر فطرة سوية تميل به نحو الخير وينفر بمقتضاها عن الشر؛ فالنفس إلى الخير أميل، وهو الأصل فيها، والشر طارئ عليها؛ وهو يكون بفعل البيئة التي تحرف الإنسان عن أصل فطرته وسلامتها؛ كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "ما من مولود يولد إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" (مسلم، 1401هـ 3/ 2047، 2048) و (البخاري، 1401 هـ 104/2)، وقد يكون الشر بتأثير الشياطين التي تجلب على الإنسان وتفسد عقيدته

بالشبهات وحياته بالشهوات؛ كما في الحديث القدسي: (وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم.....) (مسلم، المرجع السابق، 3 /2197).

تفسير السلوك:

يتبنى رشيد رضا تفسيرا للسلوك البشري أو النشاط الإنساني العام يلخصه في شيء يعده " علة غائية" لكل حركة أو امتناع عن حركة يصدر من الإنسان؛ وهو الابتعاد عن الشقاء والبحث عن السعادة؛ ويقول في ذلك: "إن هؤلاء الناس مهما تباينوا في الوسائل واختلفوا في المقاصد فهم متفقون على شيء واحد يصح أن يكون علة غائية لكل حركة وسكون يصدران منهم؛ ألا وهو: التخلص من البؤس والشقاء والظفر بهناء العيش ونعمة البال عاجلا أو آجلا، وإن شئت قلت: هو دفع المؤلم واجتلاب الملائم إما لنفس العامل فقط، وإما له ولمن يشاركه في المنزل أو الوطنية أو الجنسية" (المنار مجلد 1ج 4ص 69 ذو القعدة 1315هـ).

وهذا –كما يقول– ظاهر في نشاط الناس ومسالكهم في الحياة على اختلاف مراتبهم ومنازلهم ومهنهم وأفعالهم؛ فكل منهم " يسعى لما يرى أن فيه راحته ونعيمه" ويقول: "فالإنسان حريص كل الحرص على تحصيل العيشة الراضية والحياة الطيبة. وكل سعي أفراده إنما هو في هذه السبيل، وكما يطرد هذا في سعي طالبي الحياة الدنيا يطرد أيضا في سعي مريدي الآخرة، فالصائم والقائم، والزاهد والعابد، إنما يقصدون السعادة الأبدية **[فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ]** (الحاقة: 21-23) (المنار مجلد 1 ج 4 ص 69 ذو القعدة 1315 هـ).

وإذا كان الأمر كذلك فما بال بعض الناس يعمدون إلى فعل ما يتسبب في شقائهم؛ كالجاني والمنتحر؟ ويجيب عن ذلك بان هذا هو ما توصل إليه كل منهم بحسب اجتهاده؛ حيث كان يظن أن عمله هذا هو سبيله إلى " التخلص من البلاء والتوصل إلى النعماء" في لحظة يغيب فيها الوعي عن تصور العواقب المنطوية على الضرر والتلف والشقاء؛ وهذا من باب استحضار الغاية في الذهن؛ وهي "السعادة" والخطأ في اختيار الطريق الموصل إليها؛ كمن يطلب الثروة بالسرقة أو يطلب التجارة من دون أن يؤهل نفسه بالمهارات اللازمة لمزاولتها، وهكذا.

وفكرته عن تفسير السلوك بالبعد عن الشقاء والبحث عن السعادة تشبه إلى حد كبير ومن وجوه عدة ما ذكره ابن حزم الأندلسي عن الموضوع ذاته بقوله: " تطلبت غرضا يستوي الناس كلهم في استحسانه وفي طلبه فلم أجده إلا واحدا؛ وهو طرد الهم، فلما

تدبرته علمت أن الناس كلهم لم يستووا في استحسانه فقط ولا في طلبه فقط؛ ولكن رأيتهم على اختلاف أهوائهم ومطالبهم وتباين هممهم وإراداتهم لا يتحركون حركة أصلا إلا فيما يرجون به طرد هم، ولا ينطقون بكلمة أصلا إلا فيما يعانون به إزاحته عن أنفسهم... وإنما طلب العلم من طلب ليطرد به عن نفسه هم الجهل.....وإنما أكل من أكل وشرب من شرب ونكح من نكح ولبس من لبس ليطردوا عن أنفسهم هم أضداد هذه الأفعال...ووجدت العمل للآخرة سالما من كل عيب خالصا من كل كدر موصلا إلى طرد الهم على الحقيقة، فاعلم أنه مطلوب واحد وهو طرد الهم؛ وليس إليه إلا طريق واحد وهو العمل لله تعالى" (ابن حزم 1399هـ ، ص 14-19).

ولكن رشيد رضا يضيف بعض التفصيل ويمكن تلخيصه في النقاط الآتية:

- ضرورة البحث عن الوسيلة الصحيحة، والتحقق منها؛ لكي نصل إلى الغاية (السعادة) دون عوائق أو صوارف تهدر الجهد والوقت.
- فضل البحث في تدقيق الوسائل واختبارها وتمحيصها؛ فهو كما يقول: "أشرف الأبحاث وأفضلها، لا ينطق لسان ولا يجري يراع بأفضل من الكلام فيه. ولا غرو فإن البحث فيما يوصل الإنسان إلى الراحة والهناء في الدنيا والمثوبة الحسنة في العقبي لهو أجل ما يتحدث فيه المتحدثون، ويتنافس فيه المتنافسون، فألق إليه السمع وأنت شهيد" (المنار مجلد 1 ج4 ص 69 ذو القعدة 1315هـ).
- أهمية الربط بين العلم والعمل؛ بحيث لا يصدر العمل إلا عن بصيرة ومعرفة.
- مكانة التهذيب الخلقي ودوره في انتظام أمور الحياة للأفراد والجماعات.
- الأعمال الاختيارية سواء كانت فعلا أو تركا لا تصدر إلا عن باعث نفسي تتحرك بمقتضاه الجوارح نحو الفعل أو الكف؛ وينقسم هذا الباعث النفسي إلى نوعين:

أ- باعث طبيعي (انفعال وتأثر) كالإحساس بالجوع يدعو إلى البحث عن الطعام.

ب- باعث عقلي (إدراك وتصور) كإدراك خطورة المرض يدعو إلى البحث عن العلاج.

- هذان الباعثان أداتان لتحريك الجوارح للعمل، والأداة لا تتحرك بذاتها من دون محرك؛ ولن يحركها " خلق حسن أو خلق سيء"؛ يوضح ذلك أن مباشرة الطعام أو العلاج بإفراط أو تفريط؛ كالشره في الأكل إلى حد التخمة، أو تجويع النفس شحا وبخلا، وكترك الدواء مع الحاجة إليه بسبب مرارة طعمه، أو الإكثار منه مع عدم الاحتياج إليه وسوسة ووهما. هذا مثال على الجور؛ أما العدل فهو التزام حد الوسط وعدم الحيود عنه إلى حد الطرفين (ألإفراط أو التفريط) وهذا عام في سائر التصرفات والأعمال. (المنار مجلد1، ج4 ص 69 ذو القعدة 1315هـ).

الفروق الفردية:

كثيرا ما يعرج شيخنا على حقيقة تفاوت الناس في مداركهم ومواهبهم وأفهامهم وطباعهم؛ وهو يذكرها في ثنايا مقالاته ومعالجاته لأدواء المجتمع الإنساني؛ ومن ذلك قوله: "تفاوتت أفراده في مواهب الفهم، وفي قوى العمل، وفي الهمة والعزم، فمنهم المقصر ضعفا أو كسلا المتطاول في الرغبة شهوة وطمعا..." (المنار مجلد 1 ج 15 ص 263 /صفر/ 1316هـ).

وفي موضع آخر يفصل القول بشأن هذه الفروق الفردية بين الناس مقعدا لهذه الفروق بينهم باعتبارها خاصية من خواص الإنسان الدالة على طبيعته ومؤصلا لها بالاستدلال عليها بدليل من القرآن الكريم؛ إذ يقول:

" إذا تأملت في تاريخ هذا الإنسان رأيت أبناءه قد وقع منهم الاختلاف في كل شيء **[ولا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ]** (هود: 118- 119) اختلفوا في العقائد والمذاهب، والعادات والمشارب، وجرى هذا الخلاف منهم في مدركات الحس، كما سرى في مدارك العقل، ألا ترى أن بعضهم لا يستطيب أكل اللحوم ذوقا، كما أن بعضهم يستقبحها عقلا، أما سمعت أن منهم من أنكر مظاهر الوجود وحقائق الأشياء زعما أنها خيالات وأوهام تتراءى للحواس ولا تحقق لها في نفسها. ومن رام حصر مواد الاختلاف والافتراق بين الأمم والشعوب وبين الآحاد والأشخاص فقد رام عبثا وحاول شططا وفيما أشرنا إليه من النموذج بلاغ لقوم يفقهون، إن أصالة الخلاف والمنابذة وتمكنهما من نفوس أفراد هذا النوع قد جعلته من الخواص اللازمة أو الفصول المقومة لذاته والمقسمة لجنسه، بحيث يصح أن يعرف الإنسان بأنه (حيوان مخالف)، أفلا لا يجدر بنا أن نعجب بعد هذا إذا رأينا جميع الناس أو أمة منهم قد اتفقوا على شيء وأجمعوا على شأن؟ ألا يجب علينا أن نغتنم ذلك الشيء فنتخذه ذريعة لجمع كلمتهم واتفاق وجهتهم، الذي لا قوام لحياتهم على الوجه الذي ينبغي إلا به؟" (المنار مجلد 1 ج4 ص69 ذو القعدة 1315 هـ).

وهذه الفروق الفردية هي جزء من الطبيعة البشرية التي هي سنة الله في خلقه لا تتبدل ولا تتغير مهما حاولت المناهج المنحرفة التنكر لها؛ وفي ذلك يقول: " ولا سبيل إلى المساواة بين الناس بجعلهم في رتبة واحدة، كما ينزع إليه بعض الملاحدة في هذا العصر؛ لأن مبدع العالم (تعالى) فضل بعضهم على بعض في الرزق وغيره، كما اقتضته حكمته في طبيعة الكون، وجرب به سنته **[ولَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً]** (الأحزاب: 62) (المنار مجلد 1 ج4 ص69 ذو القعدة 1315هـ).

التفاضل بين الناس (قيمة الإنسان):

الناس في خلقتهم سواء؛ وهم كلهم مفطورون على استعدادات كامنة متشابهة ومواهب جبلية متماثلة؛ وإنما يفضل بعضهم بعضا بالبذل والعطاء والجهد؛ ويفضل بعضهم بعضا بنوع البذل والجهد؛ هل هو خاص أم عام؟ أو تتسع دائر عموميته لتشمل اناسا أكثر ومجتمعات أوسع؟ وللشيخ رشيد رضا في ذلك أقوال مهمة؛ منها ما يلي:

- "لا يتفاضل البشر في شيء كما يتفاضلون في نفع الناس والقيام بمنافعهم العامة ومصالحهم المشتركة، وإن أمتنا لتشكوا من قلة العاملين للمصلحة العامة مالا تشكوا من قلة العالمين بها..." (التربية والتعليم ، ص 86).

وهو يجعل هذا من أسباب تأخرنا عن أوروبا التي يكثر فيها العاملون للمصلحة العامة.

- ينبغي لكل من كان كريم الجوهر عالي الهمة أن ينوي ويقصد المنفعة العامة في كل عمل يعمله، فإن أقل فائدة ذلك أن يرقي نفسه ويزيده كمالا وإن لم يتم له ما ينوي".
- لا يوجد عمل من الأعمال يتعذر فيه قصد المنفعة العامة" (المرجع السابق ص87).
- "... قيمة الذي يتعلم لأجل أن ينال قوتا مضمونا من الحكومة أو من غير الحكومة لا تكون إلا بقدر جثته التي يسعى بتغذيتها، وإنها لقيمة قليلة لا يفضل بها الثور ولا الحمار الذي يأكل أضعاف ما يأكل الإنسان ولا يتألم كما يتألم الإنسان، ومن تعلوا به همته فيطلب أن يكون وجوده أوسع من محيط جسمه فإنه ينال ما يطلب، فإذا هو قام بنفع بلده كان وجوده بقدر بلده بحيث يكون ذكره مالئا له، وإذا هو قام بخدمة أمته كلها بعمل نافع يعمله لها فإن وجوده المعنوي يكون واسعا بقدر سعة أمته كلها لا يجهل ذلك قطر من أقطارها، وإذا هو استطاع أن ينفع جميع البشر فليفعل فإن وجوده يكون بقدر العالم الذي ينتفع به، وأمثال هؤلاء الرجال هم الذين يوزن الواحد منهم بأمة؛ قال تعالى: (**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً**) (سورة النحل: 120)، وقال في عباد له أعدهم لنفع الأمم: (**وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**) (سورة القصص: 5)، وعلمنا أن ندعوه بقوله: (**وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**) (سورة الفرقان: 74)؛ فعليكم أن تربوا أنفسكم على علو الهمة وخدمة الأمة لتكونوا من الأئمة" أ. هـ (المرجع السابق ص 89، 90).

ثانيا: في العلم والتعليم.

الدعوة إلى الإصلاح عن طريق التعليم:

التربية والتعليم هي أخصر الطرق إلى الإصلاح؛ كما يقول رشيد رضا: "أما رأينا فهو أن أهم ما يجب تقديم العناية به وتفصيل القول فيه هو الحث على التربية والتعليم الصحيحين؛ إذ بهما تتآلف القلوب وتجتمع الكلمة وتعرف الحقوق والواجبات الملية والقومية والوطنية معرفة كاملة تبعث الإرادة على العمل، ومتى تكونت الأمة وتربت وتعلمت فهي تصلح حكامها وتندفع بطبيعتها إلى الأعمال النافعة والصنائع المفيدة..." (المنار مجلد 1 ج47 ص 901 8شوال 1316هـ).

ويربط بين حال المجتمع من الصلاح أو الفساد وحاله من القوة أو الانحطاط؛ اخذا من قوله تعالى: (**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**) (سورة الرعد: 11)؛ فإن الله ما غير ما بالعرب من الضعف والهوان إلا بعد ما غيروا ما بأنفسهم من الشرك إلى التوحيد ومن الجهل إلى العلم ومن العمل السيىء إلى العمل الصالح؛ ثم لما بلغوا القوة في العزة والسيادة لغيرهم لم يغير الله ذلك إلى ضده إلا بعد أن غيروا ما بأنفسهم من التمسك بالإسلام عقيدة وعبادة ومعاملة وأخلاقا وأمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر إلى ضده؛ وكذلك حالهم الآن –كما يقول-: " لا يغير ما بنا الآن من الضعف والفقر وسوء الحال والهوان عل الناس والتحاسد والتباغض والتعادي والتفرق وغير ذلك مما نشكو منه ولا نقلع عن أسبابه حتى نغير ما بأنفسنا ونعود إلى الهداية التي كان عليها سلفنا..." (التربية والتعليم، ص 24).

ثم نجد أنه رحمه الله يعلق أهمية كبيرة على التربية والتعليم في إحداث هذا التغيير المنشود؛ حيث يقول: " وإنما يكون تغيير ما بالأنفس بالتربية والتعليم؛ فإن المراد من التغيير ما يترتب عليه تغيير العمل؛ وإنما الأعمال آثار العلوم والأخلاق، فمتى كان العلم بالحق والباطل وبالمصالح والمفاسد والمنافع والمضر صحيحا والأخلاق فاضلة كانت الأعمال كلها صالحة مؤدية إلى رفعة الأفراد وكمالهم الديني والمدني.... (المرجع السابق، ص 34، 35).

ومن هنا يتبين أنه كان يعول كثيرا على التربية والتعليم طريقا للإصلاح المنشود للمجتمعات الإسلامية، ليس في مصر وحدها؛ ولكن في العالم الإسلامي بأسره؛ ولذلك سعى لإنشاء مؤسسات خاصة لهذا الغرض؛ ومنها تأسيس دار الدعوة والإرشاد، وكان يباشر بنفسه كل ما يحتاج تأسيسها إليه من مواد البناء والتأثيث إلى اختيار المعلمين والعاملين معه فيها؛ الى اختيار مواد التعليم والكتب والمراجع، وما إلى ذلك. وكان لهذه المدرسة مكانة عظيمة في نفسه، وكان يرى نفسه عاشقا لها وهي معشوقة له، وهو يصف شعوره حينما

جاءته دعوة من علماء الهند لحضور مؤتمرهم حول التعليم الإسلامي في الهند عام 1330هـ فكانت تتنازع نفسه رغبات متعارضة؛ كان يرغب في زيارة الهند وإجابة الدعوة؛ ولكن كان يصعب على نفسه مفارقة "دار الدعوة والإرشاد" حديثة التأسيس ويصف شعوره هذا بقوله: "فتحت مدرسة دار الدعوة والإرشاد وهي منتهى رجائي في خدمة الإسلام وغاية سعيي في إصلاح التربية والتعليم، وأقر الله عيني برؤيتها والبدء بإلقاء الدروس فيها ورأيتني مدعوا إلى مفارقتها في أول العهد بوصالها والتمكن من التمتع بجمالها، فتجدد لي شعور ووجدان لم يكن عندي في أيام السعي والنصب، وكنت كالعاشق الذي دعى إلى ترك معشوقه بعد طول العناء في طلبه (المرجع السابق ص 4، 5).

وقد ذهب رغم ذلك إلى الهند لحضور المؤتمر اهتماما منه بموضوع المؤتمر "التربية والتعليم" ورغبة منه في مدارسة علماء الهند حول شؤون التربية والتعليم؛ وفي الخطاب الذي ألقاه في المؤتمر كان موضوعه التعليم وشؤونه ليس في مصر أو الهند وحدهما وإنما في بلدان العالم الإسلامي؛ فذكر مثلا حال التعليم في بلاد التتار الواقعة تحت الهيمنة الروسية وذكر التحديات الروسية التي تضيق الخناق على التعليم الإسلامي هناك؛ حيث يعتبر جريمة تعاقب عليها الحكومة الروسية بالنفي أو السجن؛ كما حصل للشيخ عالم جان وأخوه حيث نفيا إلى مصر، وكانت جريمتهما إدارة مدرسة إسلامية في مدينة قازان؛ أو كما حصل للأخوين عبد الله بوبي وأخيه عبيد الله بوبي؛ حيث ألقيا في غياهب السجن بالتهمة نفسها. كما تحدث عن حال التعليم في بلدان أخرى كالمغرب؛ حيث وصفه بأنه –في ذلك الوقت– شر من حال التتار؛ فالتتار برغم ضغوط حكومتهم الروسية إلا أنهم يرسلون وفودا تتعلم في مصر والشام والحجاز ليتقنوا العربية ثم يعودون لتعليم بني جنسهم؛ أما حال مسلمي تونس وجزائر فلا يسمح بمثل هذا؛ حيث أن الاستعمار الفرنسي كان أشد نكاية ومحاربة للتعليم الإسلامي، ثم يذكر من حال آهل جاوه والملايو، وهو حال " أسوأ من جميع أحوال المسلمين وقد أحاطتهم هولندة بسور من الجهل لا يتسلقه أحد" (المرجع السابق ص12)، ثم يحث مسلمي الهند على الجد في نشر التعليم؛ لاسيما والحكومة البريطانية (التي تستعمر الهند)" أوسع الحكومات الاستعمارية حرية ويمكن لمن يكونون في ظل حكمها أن يرقوا أنفسهم إذا سلكوا في ذلك طريق العقل والحكمة...." (المرجع السابق ص 12).

ويحذرهم من خلط التعليم بالسياسة؛ " لأن السياسة ما دخلت في شيء إلا أفسدته"؛ كما يقول محمد عبده فيما نقله عنه؛ فيكون اشتغالهم بالسياسة ملهيا لهم عن نشر التربية والتعليم، وقد يكون ذلك ذريعة للحكومة البريطانية لمنع التعليم الإسلامي.

الدعوة إلى إصلاح التعليم:

دعا رشيد رضا إلى إصلاح التعليم باعتباره حاجة بديهية لابد منها؛ وفيما يتعلق بالموقف من إصلاح التعليم تحدث عن فريقين؛ الأول منهما من باشر محاولة الإصلاح عن طريق إحداث نظام تعليمي جديد ل برامجه التي بموجبها تم اختيار مقررات جديدة في مقابل مقررات أو كتب قديمة، وتم أيضا إدخال علوم وفنون جديدة لشدة الحاجة إليها، والفريق الثاني هم الذين يرون المحافظة على الوضع القائم دون تغيير؛ حيث يرون أن " ما جروا عليه واعتادوه هو غاية الكمال التي لا تقبل الزيادة بحال من الأحوال" وعند هؤلاء تنتفي الحاجة إلى الإصلاح؛ وثمة فريق ثالث متطرف في نظرته إلى الإصلاح التربوي؛ حيث يرى اتخاذ خطوات جذرية شاملة وإحداث ما يشبه الطفرة في التغيير السريع. (المرجع السابق، ص 19، 20).

ولكن رشيد رضا يرى أن " التغيير الفجائي السريع لا يخلو من خطر أو ضرر" وهو يدعو في مقابل ذلك إلى التدرج وأخذ الإصلاح بقوة والدعوة إليه على بصيرة، وعند ذلك سيكون الزمن عاملا مساعدا في خدمة الإصلاح (المرجع السابق، ص21).

لابد من إصلاح طريقة التربية وطريقة التعليم معا؛ حيث يثمر التعليم عملا تقوى به الأمة وتخرج به من "جحر الضب" الذي بقيت فيه مهانة ذليلة قرونا طويلة وكأنها مصابة" بالفالج أو داء السكتة" كما يقول. (المرجع السابق، ص 25).

وبالجملة يقول: "خير الإصلاح إصلاح التعليم، وخير التعليم ما كان على الطريقة العملية" (المنار مجلد3 ج9 ص 198، 1 صفر 1318هـ).

ويقصد بالطريقة العملية هنا التعليم المصحوب بالتطبيق العلمي سواء كان أداء مهنيا أو صناعيا أو مهاريا مهما كان، وعدم الاقتصار على الجانب النظري الذي لا يكون له انعكاس على واقع حياة الأفراد ولا واقع حياة مجتمعاتهم، ويستشهد لذلك بمثال من الطريقة العملية التي سار عليها أحد المكافحين السود في أمريكا ويدعى بوكر واشنطون؛ حيث كافح مع قلة ذات يده إلى أن أوجد مدرسة لتعليم الصناعات والعلوم والفنون تسير على هذه الطريقة، واستفاد من التعلم بها كثير من أسر السود في الجنوب الأمريكي وارتقى مستوى معيشتهم بإيجاد مصدر رزق لأفراد أسرهم عن طريق التعلم المصحوب بالتطبيق داخل المدرسة، ومن ثم المهارة العملية التي ينتقل بها الفرد إلى ميدان العمل الإنتاجي خارج المدرسة مستقلا بدخله سيدا لنفسه بعد أن كان فقيرا معدما مستعبدا لغيره بسبب حاجته.

وهو في مقدمته لهذا الموضوع ينعي على الأزهر طريقة تدريسه وتربيته النظرية البحتة التي يملؤ فيها الذهن بالمعارف دون تطبيق ودون اختبار لهذه المعارف في ميدان العمل الحقيقي في الحياة. (المنار مجلد 3 ج9 ص 198، صفر 1318هـ).

العلم الصحيح:

انطلاقا من رأيه في ضرورة اقتران العلم بالعمل في العملية التعليمية فإنه يرى أن العلم يجب أن يؤدي إلى العمل في واقع الحياة؛ فيكون العلم هو المقدمة، وهو القائد، وهو الباعث، ويكون العمل هو النتيجة الطبيعية المنبثقة من كل ذلك؛ وما لم يؤدي العلم إلى هذه النتيجة في واقع حياة الفرد عالما أو متعلما فلا يعد علما صحيحا؛ ويقول في ذلك: " والعلم الصحيح الذي يجدر أن يسمي صاحبه عالما هو ما كانت ملكته راسخة في النفس تصدر عنها آثارها بلا تعمل ولا روية".

ورسوخ ذلك في النفس يكون "بتكرار العمل والتطبيق" أثناء العملية التعليمية، ويرد على الذين يهونون من شأن ذلك بقوله: "إن العلم الذي لا يؤثر في أخلاق النفس ولا يبعث ويزعج إلى إصلاح أعمالهم لغو لا فائدة فيه البتة ولا يصح أن يسمى علما. فإن قيل: فائدته القيام بإفادة الناس به بالتعليم، نقول: ولماذا يتعلم الناس ما لا أثر له في أخلاقهم وأعمالهم التي هي مصدر سعادتهم؟!". (المنار، مجلد2 ج6 ص90 ذو الحجة 1316).

ويوضح تأثير العلم الصحيح في العمل بقوله إن إرادة الإنسان –التي تتحرك بأمرها أعضاؤه نحو العمل- تتأثر بحصيلته العلمية إن كانت صحيحة حركت الإرادة نحو الفعل الصحيح؛ وإن كانت هذه الحصيلة مشوبة بأوهام أو غير مستقرة في النفس منطبعة بها فإنها تحرك الإرادة نحو أفعال سيئة مضطربة، ولذلك فإن " العلم الإجمالي" الذي لا يكون مصحوبا بالعلم التفصيلي للفروع والمسائل لا يكون له كبير أثر في تصحيح السلوك؛ لأنه علم ناقص، ويضرب على ذلك أمثلة من علم الناس بأصول الفضائل والرذائل علما إجماليا لم يمنعهم من الوقوع في الرذائل ولم يحملهم على فعل الفضائل؛ لأنه علم ناقص، ويستدل على هذه القضية – وهي " أن العمل إنما ينشأ عن العلم الأثبت والأقوى في النفس" –بقوله صلى الله عليه وسلم: "أنا أعلم ؟؟ب الله وأشدكم له خشية"، وقوله تعالى: " **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**" (سورة فاطر:28).

ويؤكد على هذه القضية مرة أخرى بقوله: " ثبت بما ذكرناه أن العقل والنقل متفقان على أن العلم الصحيح السالم من الشوائب والعلل هو الباعث لإرادة الإنسان على تحريك الأعضاء للعمل، فيصح أن يستدل بأعمال الأفراد وأعمال الأمم على مكانتها من العلوم

بوجوه منافعها ومصالحها وما عندها من الفنون التي يزيد العمل بها اتقانا وارتقاء..." (المنار، مجلد 2 ج6 ص90 ذو الحجة 1316).

الدعوة إلى إصلاح المناهج التعليمية:

دعا رشيد رضا إلى إصلاح التعليم عن طريق إصلاح المناهج التعليمية، ونقد نقدا لاذعا المناهج السائدة في عصره؛ سواء من حيث اختيار الكتب المقررة، أو طريقة بنائها وصياغتها، أو طريقة تدريسها، ووضح آراءه بالتفصيل حول هذه القضية؛ ويمكن ذكر أمثلة ونماذج حول فيما يلي:

أ- **القرآن الكريم:**

ينحي باللائمة الشديدة على أولئك الذين يرون أن تعليم القرآن ينبغي أن يقتصر على تعليم تلاوته بدون الالتفات إلى معانيه ومقاصده؛ حيث يرون أنه لا يحتاج إلى فهمه إلا من كان من الفقهاء المجتهدين الذين يحتاجون فهمه لاستنباط الأحكام العملية منه؛ سواء منها ما يتعلق بالعبادات والمعاملات أو ما يحتاج إليه في المحاكم والإفتاء وهؤلاء الذين يظنون أنهم على حق في ذلك لا يرون تدريس التفسير مع أن تعلم التفسير يعين على الاهتداء بالقرآن والاستنارة به في الحياة. (التربية والتعليم، ص40).

ويبين رحمه الله أن القرآن كتاب هداية ورحمة للعالمين؛ وليس للمجتهدين خاصة؛ والدليل على ذلك أن آيات الأحكام في القرآن أقل عددا من غيرها من الآيات التي تساق في موضوعات أخرى لغرض التربية وهداية الأرواح وترقية العقول، والاهتداء بهديه هو ما جعل القرون الأولى يوصفون في القرآن بأنهم (خير أمة أخرجت للناس)؛ مع أنهم أو أكثرهم لم يكونوا مجتهدين بالمعنى الأصولي الشائع؛ فقد كان القرآن منبع التزكية لنفوسهم وعقولهم وحياتهم؛ فكانوا لا يطؤون أرضا إلا كانوا قدوة حسنة لأهلها يجذبونهم بفعالهم إلى الإسلام قبل أقوالهم؛ ومن أن يفتحوا المدارس لهم أو يتعلمون لغاتهم لمخاطبتهم ودعوتهم إلى الإسلام؛ والذي كان يحدث هو العكس أن أهل البلاد المفتوحة ما يلبثون إلا يسيرا حتى يتعلموا القرآن ولغة القرآن، وكان هذا سببا في الانتشار السريع للإسلام في أصقاع كثيرة، وسببا لانتشار اللغة العربية بسرعة قبل أن توجد مؤسسات وكتب لتعليمها؛ ولاريب أن تأثير القرآن العجيب في النفوس كان له دور كبير في ذلك؛ وهو تأثير يلمسه المؤمن وغير المؤمن؛ كالنصارى مثلا، وقد نقل عن بعضهم قوله: "إن لهذه القراء –قراءة القرآن– تأثيرا عميقا في النفس"؛ فما بالك بالمؤمنين به. (المرجع السابق ص 44).

ثم يسوق رحمه الله بعض الآيات الموضحة لقوة تأثير القرآن وسلطانه وهيمنته على النفوس والقلوب والأذهان والجوارح، ودوره في الحياة المعنوية للفرد والجماعة والأمة،

والاهتداء به لمعرفة السنن النفسية والاجتماعية التي تفسر سلوك الفرد وحياة الجماعة، ويقظة الأمة من سباتها الطويل. (المرجع السابق ص46).

ويصف حال الأمة المسلمة في زمنه بأنها لا زالت في نوم طويل لم تستيقظ منه وإنما استقيظ أفراد من علمائها في كل بلد من البلدان، وهم يحاولون إيقاظها ثم يصف المجتمعات المسلمة بأنهم "مرضى" وأن دواءهم في كتاب الله؛ كما قال عز وجل: (**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ**) (سورة الإسراء: 82)، ويتم التعرف على هذا الدواء –كما يقول– بمعرفة اللغة العربية، ثم تلاوة القرآن تلاوة تدبر وفهم بقصد الاهتداء والاستشفاء به، فالجهل بلغته وعدم تدبره حجابان يحولان دون الاستفادة منه. (المرجع السابق ص 49، 50).

ويخلص من ذلك إلى القول: "لا شفاء لنا ولا حياة إلا بكتاب ربنا وإن الاهتداء به لايكون إلا بإحياء لغته". (المرجع السابق ص 54).

والنتيجة الطبيعية لذلك كله أن تدريس القرآن ينبغي أن يكون شاملا للفظه ومعناه، وفهمه وتدبره، ومعاني لغته ومفرداته، ومقاصده ومراميه، وأن تدريسه يجب أن لا يقتصر على تقويم اللسان بتلاوته؛ وإنما يكون مع ذلك تزكية النفوس بمعانيه وتربيتها بمواعظه وتقويم السلوك بقيمه وأخلاقه وأوامره ونواهيه، وعند ذلك يظهر أثر تدريسه على سلوك الأفراد وحياة المجتمعات.

ب– اللغة العربية:

يقول رشيد رضا: ".... إن تعلم اللغة العربية فرض على جميع المسلمين فإن ما فرضه الله تعالى عليم من تدبره –أي القرآن– والتذكر والاعتبار به والاهتداء بهديه كل ذلك يتوقف على معرفته لغته، وقد روى هذا القول عن بعض علماء السلف؛ ومنهم الشافعي وهو ما جرى عليه العمل في الصدر الأول، وهو أبلغ من القول، ولولا هذا الاعتقاد لما انتشرت اللغة العربية بإنتشار الإسلام في الشام والعراق وفارس من بلاد المشرق ومصر وأفريقية الشمالية كلها والأندلس من جهة المغرب" (المرجع السابق ص 50، 51).

ويتضح من قوله هذ أنه يستدل على وجوب تعلم اللغة بدليلين؛ أحدهما: قاعدة أن ما لا يتم أداء الواجب إلا به فهو واجب، والثاني: الدليل العملي الذي حصل في عصر صدر الإسلام؛ حيث حصل تعلم اللغة العربية فعلا من قبل أهالي البلاد المفتوحة بعد فتحها، وهو يسوق ذلك في معرض دعوة المسلمين من العجم عموما إلى تعلم اللغة العربية؛ وإذا كان هذا حكمها بالنسبة للمسلمين عموما فإن حقها على أبنائها وأهلها "العرب" يكون ألزم وأوجب.

ويحدد الغاية من تعليم اللغة العربية: "الغاية المقصودة من اللغة... أن تكون ملكة له يقدر على التكلم والكتابة بها يغير تكلف ويفهم الكلام لبليغ منها بغير تردد، ويتأثر به من غير تصنع، فإن كان مقنعا اقتنع، وإن كان وعظا اتعظ، وإن كان سارا سر ، وإن كان محزنا حزن.." (المرجع السابق ص 34).

ويحدد بعض المعالم الهامة لتدريس اللغة تدريسا فعالا يثمر الملكة والقدرة التي حددها بصفتها غاية لتعليم اللغة العربية؛ ومنها:

- الاعتماد على الكتب التي تتميز بالبساطة وسهولة العبارة مع كثرة الشواهد والأمثلة المبينة لمقاصد الدروس.
- مجانبة الكتب المختصرة المعقدة الخالية من الدلائل والمقتصرة على ذكر القواعد بإيجاز شديد ودون شواهد توضح المقصود؛ فإن هذا يشغل ذهن المعلم والطالب في فك رموزها وشرح ألفاظها عن تحصيل العلم الذي هو الأصل. (المرجع السابق ص 27، 28).
- البدء في التعليم بالجزيئات المفردة التي عن طريقها تستنبط القاعدة الكلية؛ بحيث تكون البداية بالجزيئات ومعرفة ما بينها من الاشتراك والاتفاق أو الاختلاف ومن خلال ذلك يتوصل إلى الكليات التي هي قواعد يكون تطبيقها على مفردات كثيرة؛ فهذه الطريقة أجدى من البداية بالقواعد الكلية التي يصعب فهمها مجردة عن الأمثلة في البداية.

والتعليم على هذه الطريقة كما يقول: "هو التعليم الموافق للفطرة؛ لفطرة الله التي خلق الناس عليها، ومخالفته مخالفة للفطرة؛ فالناس يتعلمون اللغات بتلقي مفرداتها بالعمل"؛ ويقصد بالعمل هنا التطبيق، ويقول بأن من وضع هذه القواعد الكلية هم علماء كبار أصحاب عقول عرفوا علومهم بعمق ثم تأملوا فيها واستخرجوا منها قواعدها الكلية؛ فإذا درسنا تلاميذنا الصغار تلك القواعد ابتداء فإننا نكلفهم فوق طاقتهم نكلفهم أن يكونوا في مستوى أولئك العلماء، (المرجع السابق ، ص 38، 39).

هذا ملخص ما ذكره حول إصلاح مناهج تعليم القرآن وتعليم اللغة العربية، ثم اعتذر بضيق الوقت عن "بيان إصلاح تدريس سائر العلوم الإسلامية ثم بيان ما يحتاج إليه من العلوم الدنيوية" (المرجع السابق ص 54)، وأحال على الفصل الملحق بنظام مدرسة الدعوة والإرشاد؛ حيث قد بين فيه ذلك.

المنهج التعليمي:

يحدد رشيد رضا المنهج التعليمي استنادا إلى المنظور الشرعي نحو العلوم طلبا أو تركا؛ فهو يطرح سؤالا حول العلوم المطلوبة لجميع الأفراد والتي لا يسع أحدا منهم الجهل بها؛ ثم يذكر أن الشريعة قسمت العلوم التي فرضت تعلمها إلى قسمين: "واجب عيني" و "واجب كفائي"؛ ويكتفي بهذا التقسيم؛ فلا يذكر النوع الثالث الذي يذكره العلماء عادة؛ وهو أن العلوم المطلوبة تنقسم إلى ثلاثة أقسام؛ هي "فرض عين" و "فرض كفاية" و "مستحب أو نفل".

ثم يحدد المقصود بالأول بأنه ما يتعلق بتصحيح العقيدة، ومعرفة أحكام العبادات، وتزكية النفوس، ومعرفة الحلال والحرام؛ وهذا تتعين معرفته على كل فرد مسلم.

وأما الثاني فهو: الواجب على الأمة بمجملها لتعلقه بمصلحتها العامة؛ وهو ما به قوام أمر الدين والدنيا من العلوم الدينية والدنيوية، ويجب أن لا تخلو الأمة ممن يتخصصون بها؛ وإلا وقعت في الحرج والإثم.

ثم بدأ يفصل في مواد المنهج التعليمي أو بحسب تعبيره "ما لابد منه من الفنون لكل فرد من أفراد الأمة بحسب ما تقتضيه حالة العصر"؛ وهي:

1- علم أصول الدين؛ أي ما يتعلق بالقضايا الأساسية للدين وأدلتها ومتعلقاتها بعيدا عن غوامض علم الكلام وما يشوش الأذهان.
2- علم تهذيب الأخلاق و إصلاح العادات.
3- " علم فقه الحلال والحرام والعبادات....." مع معرفة فائدتها وحكمتها.
4- علم الاجتماع البشري.
5- علم الجغرافيا.
6- علم التاريخ.
7- علم الاقتصاد "الذي يبحث عن إنماء الثروة وحفظها".
8- علم تدبير المنزل؛ ولاسيما للبنات ليعينهن على أداء وظيفتهن وانتظام أمور أسرهن.
9- علم الحساب؛ ويتوسع فيه الذكور عن القدر اللازم للجنسين بما يعينهم على مزاولة الأعمال المالية والتجارية.
10- علم حفظ الصحة.
11- علم لغة البلاد؛ ولها على أهلها حقوق كثيرة دينية ودنيوية؛ فهي وعاء علوم دينهم ووسيلة تواصلهم، ويجب تسهيل إتقانها والتعامل بها؛ كما هي عربية فصيحة بليغة؛ بعيدا عن التعقيد الذي ينفر النفوس عن الإقبال على تعلمها.

12- فن الخط، ولاسيما القدر اللازم منه لكل أحد.

أما ما وراء هذه العلوم من العلوم المتعلقة بتطور الصناعة والتجارة والزراعة فهذه يجب أن يتخصص فيها متخصصون من أفراد المجتمعات المسلمة؛ وحيث أن هذه العلوم مصادرها –في الغالب– بلغات غربية فيجب أن يتعلم آخرون اللغات الأجنبية ليتمكنوا من ترجمة هذه العلوم إلى اللغة العربية.

ويبدو من عرضه أنه يمازج بين التعليم الديني والمدني في صيغة واحدة؛ بحيث يكون هناك منهج تعليمي متكامل يشمل الجانبين بعيدا عن التعليم "بغير الصيغة الدينية" الذي " ما زادنا إلا بلية ورزية" كما يقول رحمه الله. (المنار مجلد1 ج30 ص 567، 24 جمادي الأولى 1316 هـ).

من عوامل النجاح في التعليم:

ينتقد محمد رشيد رضا في مواضع عديدة من مقالاته أساليب التعليم السائدة في عصره ويبين نقاط ضعفها، وفي مقابل ذلك يقدم اقتراحاته التي تتضمن عددا من العوامل التي من شأن الأخذ بها أن يجعل العملية التعليمية مجدية، ومن هذه الاقتراحات:

- البدء بالجزئيات قبل الكليات في تدريس الصغار؛ "لأن.... الصغير يدرك في أول أمره الجزئيات الحسية ثم ينتزع الكليات من التوافق والتباين اللذين يراهما فيها"؛ وذلك عن طريق الاستقراء ويسمي هذا النوع من التعليم "بالتعليم الفطري" لأنه يوافق فطرة الإنسان؛ ويقول في ذلك: "والصراط المستقيم لحسن التعليم هو صراط الفطرة والطبيعة وهو أن تلقي للتلميذ أمثلة محسوسة كثيرة ثم تنبهه على أن هذه الجزئيات يجمعها أمر كلي يسهل على من تعلقه أن يلحق كل ما يعرض له من الجزئيات به وهو كذا، ثم يطالب بأن يأتي بعدة أمثلة من عند نفسه، ويلي هذا الطريق أن يفهم التلميذ القاعدة إجمالا ثم توضح له بكثرة الأمثلة. وبهذا التعليم يستغني بقراءة كتاب واحد مرة واحدة عن قراءة الكتب الكثيرة وتكرارها، وبهذا التعليم تحفظ المسائل فلا تنسى إلا ما شاء الله". (مجلة المنار، مجلد2 ج6 ص 90 ذو الحجة 1316).
- أن لايقتصر في التعليم على التعليم النظري المعزول تماما عن الجانب العملي التطبيقي، فإن هذا التعليم يزول أثره سريعا ولا يبني ملكات علمية أو عملية في النفوس؛ وفي ذلك يقول: "وغاية ما انتهى إليه الباحثون في فن التعليم أن الأعمال هي التي تطبع ملكات العلم والعمل في النفوس، وأن المسائل العلمية التي تعرض على العقول من طريق السمع مرة أو مرات لا تكاد تثبت، وإذا ثبت بعضها فإنما

يكون كآلة موجودة في بيت رجل لا يحسن استعمالها، ما إذا عرضت لمعلومات بأعيانها أو أمثلتها عند الكلام عليها وكلف المتعلم أن يستعمل علمه ويطبقه على المعلومات..". (المنار مجلد2 ج2 ص25 ذو القعدة 1316هـ).

ومن الأمثلة على التعليم بالعمل أو التعليم التطبيقي الذي لا تنعزل فيه النظرية عن التطبيق والتي يوصي بها ما يلي:

أ- الإكثار من الأمثلة التطبيقية في دراسة قواعد العربية والتمرن عليها بالقول والكتابة حتى يصبح الكلام الفصيح سجية تلقائية تصدر من الإنسان دون تكلف.

ب- الإكثار في دراسة البلاغة من قراءة الكلام البليغ وتفهمه وملاحظة معانيه وأساليبه وما إلى ذلك، وعدم الاقتصار على القواعد ودراستها وحفظها فهذا لا يوصل إلى المطلوب. (المنار مجلد2 ج2 ص25 ذو القعدة 1316 هـ).

ج- في تدريس القضاء "بيان المسائل في ضمن الأمثلة والأحكام الشرعية في صور الواقعات وهو ما كان عليه سلفنا من قبل ألف سنة"؛ ويقترح لكي يكمل هذا النوع التطبيقي من التعليم القضائي "تأليف هيئة للمحاكمات الوضعية كهيئة المحكمة الحقيقية –رئيس وقضاة (أعضاء) ومدع ومدعي عليه أو وكلاء (محامون) وبينات وتحقيق وحكم. وينبغي أن تكون المرافعة علنية وأن يتناوب طلاب العلم القضاء فيها...." (المنار مجلد2 ج 8 ص 117 ذو الحجة 1317هـ).

- أن يعطي المتعلم الفرصة للتفكير والتروي فيما يقدم له من معلومات، وأن لا تقدم له المعلومات على أنها للتلقي من دون روية أو فكر منه؛ فإنه بهذا ينشؤ على "التقليد الأعمى" الذي يطفئ جذوة الفكر والإبداع. (المنار مجلد 2 ج 19 ص 299 ربيع الأول 1317هـ).

من الطرق العقيمة في التعليم:

يبدو من نقد الشيخ رشيد لأساليب التعليم السائدة في عصره أن التعليم آنذاك كان متأثرا بطرق تقليدية جامدة؛ ومن الطرق العقيمة في التعليم في نظره ما يلي:

- اختيار "المتون الوجيز المختصرة" للتدريس والاستعانة على تدريسها بشرحها؛ وهذه المختصرات –كما يقول- لم توضع أصلا للتدريس وإنما وضعت لغرض تذكرة المنتهي من الطلب؛ وخاصة في حال السفر التي يصعب معها حمل الكتب الكبيرة، فيأخذ المسافر معه بعض هذه المتون يتذكر بها ما وراءها من مسائل العلوم وتفصيلاتها، ولكن المتأخرين اتخذوها منهجا يعتمد عليه في التدريس والطلب، وهي خطوة عقيمة

نتيجتها معرفة نظرية ناقصة يثبت قصورها عند مواجهة الواقع والعمل الميداني في القضاء أو غيره من الميادين. (المنار مجلد 2 ج8 ص 117 ذو الحجة 1317هـ).

- من هذه الطرق العقيمة -كذلك- كما يقرر الشيخ رشيد مطالبة الأحداث المبتدئين في التعليم "بغايات العلوم وكلياتها"؛ لأن "إدراك الكليات والإشراف منها على الجزئيات هو غاية العلم ومنتهى التحصيل...."، ولم يتوصل إليها العلماء إلا بعد أبحاث طويلة في أزمنة متعاقبة حيث توصلوا إلى حصيلة تمثلت في "فهم القواعد الكلية واستنباط الجزئيات منها". والطريقة الصحيحة أن يسلك مع المبتدئين مسلك الجزئيات التي تؤخذ شيئا فشيئا على قدر عقولهم إلى أن تبنى الكليات من مجموعها في أذهانهم. (المنار، مجلد2 ج6 ص90 ذو الحجة 1316).

كفايات المعلمين واختيارهم:

يحذر رشيد رضا من اختيار المعلمين بناء على "شهادة التحصيل" فقط دون النظر إلى المزايا أو الكفايات الضرورية لممارسة مهنة التعليم؛ كما ينبه إلى خطورة أن يكون اختيارهم للتعليم خاضعا لشفاعة الشفعاء والوجهاء، أو تعاطفا مع حال المتقدم للوظيفة؛ إذا كان "صاحب عيال " مثلا؛ أو كان قد مرت به ظروف صعبة ووضعه يحتاج إلى إغاثة أو إنقاذ؛ فهذا الاختيار من شأنه أن يصلح حال هؤلاء المعلمين؛ ولكنه يعود بالضرر البالغ على المؤسسة التعليمية وأدائها لرسالتها؛ ولاسيما إذا كان هؤلاء المختارون يفتقرون إلى الكفايات الأساسية والمهارات اللازمة للقيام بمهمة التربية والتعليم، وهو يكون على حساب تربية طلاب تلك المؤسسات؛ وهذا الاختيار في الواقع أمانة ومسؤولية؛ ينبغي أن يكون اختيار المعلمين بناء على ما يتمتعون به من مهارات وكفايات عملية من دون مجاملة أو محاباة أو هوى. وأهم ما ينبغي اعتباره عند اختيارهم ما يلي:

1- الخلق الحسن والأدب الرفيع "فإن سيء الأخلاق يبني بتعليمه قصرا ويهدم بإفساده آداب الطلاب مصرا".
2- معرفة أساليب التعليم والتمرن عليها.
3- معرفة شيء من علم الفلسفة العقلية وعلم الهيجين (مداراة الصحة) ليعرف ما ينبغي أن يلقن للتلميذ بحسب سنه واستعداده العقلي.
4- معرفة واقع مجتمعه.
5- الاطلاع الواسع على "جميع العلوم والفنون المتداولة فيه وغايتها في الجملة"، والمقصود أن يكون لديه ثقافة عامة؛ بحيث لايدفعه جهله بالعلوم الأخرى إلى تنفير التلاميذ منها أو تقليل شأنها في نظرهم.

6- الغيرة على حرمات الدين مع "الحمية القومية"؛ فهذا يعنيه على غرس الغيرة في نفوس طلابه.

7- ما من شأنه يحبب التلاميذ به وييسر انتفاعهم منه ويبعد نفورهم عنه؛ كحسن الوجه والمظهر والثياب، وما إليها. (المنار، مجلد2 ج4 ص56، 11/20 / 1316).

وبالنظر إلى هذه الكفايات التي ذكرها تتضح أهميتها؛ وبعضها من قبيل المهارات التي تؤخذ بالاعتبار في خطط ومناهج كليات إعداد المعلمين وكليات التربية، وبعضها من قبيل الصفات الشخصية التي يتفاوت الناس فيها؛ كحسن الخلق والغيرة؛ ولا سبيل إلى التأكد من التحلي بها إلا عن طريق العلاقة القوية والمعرفة العميقة بالأفراد المتقدمين للعمل بالتعليم. وهذا يتعذر وجوده غالبا، ولذلك فالحكم على الأشخاص من هذه الناحية يخضع في الغالب للانطباعات الشخصية.

وأما ما ذكره من معرفة شيء من علم الفلسفة العقلية وعلم مداراة الصحة ليعامل تلاميذه وفقا لسنهم واستعدادهم العقلي؛ فهذه المعرفة –الآن– توفرها مقررات علم نفس النمو وعلم النفس التربوي والصحة النفسية؛ وقد كانت هذه العلوم قديما تدرس تحت مظلة "الفلسفة" قبل أن تستقل عنها.

ثالثا: في التربية.

المقصود بالتربية والتعليم:

يعرف التربية بقوله: "هي مساعدة القوى التي من شأنها أن تربو وتنموعلى بلوغ الكمال في نموها المستعدة هي له في أصل الفطرة والخلقة، وذلك بإزالة الأسباب التي تعيق النمو أو تنحرف بالقوى عن جادة الاعتدال المطلوب، وبإمداد هذه القوى بما تغتذي به من المواد (في القوى المادية) والمعلومات (في القوى المدركة العاقلة) الخارجة عنها.

أما التعليم فإنه في نظره يطلق على معنيين:

أولهما: إمداد القوى المدركة بعرض الأشياء عليها تدريجاً بالقول والفعل بحيث تدركها وتقدر عن التصرف فيها قولاً وعملاً (كل شيء بحسب ؟؟ هذا المعنى داخل في مفهوم التربية ويشمل، تعليم العلوم الاعتقادية والأدبية والفنون الصناعية.

وثانيهما: علم أساليب التعليم وطرقه القريبة، وهو فن نفيس ارتقى المشتغلون به الدرجات العلى في العلوم والفنون، حيث أمكنهم تحصيل الكثير في الوقت القصير"، ثم يقول: "ولا يأذنون في أوربة وأمريكة بالتدريس والتعليم إلا لمن أتقن هذا الفن في مدارسه التي أنشئت له. هذا، ونحن لا علم لأكثرنا بأن أساليب التعليم قد وضع لها علم مخصوص". (المنار مجلد2 ج1 ص15 شوال 1316هـ).

ويتضح من تعريفه للتعليم أنه يقصد بالمعنى الأول "التعليم" الذي هو تزويد المتعلم بالمفردات المعرفية في أي علم من العلوم العقدية أو الأدبية أو غيرها، ويقصد بالمعنى الثاني "طرق التدريس"، ومدارسه التي أنشئت له هي كليات التربية أو كليات المعلمين، ويتضح من كلامه هذا أن هذا النوع من المدارس غير معروف في العالم العربي آنذاك.

الحاجة إلى التربية:

الحاجة إلى التربية أصبحت –كما يقول– من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى مزيد بيان؛ ولكن من باب التذكير ببعض الأمور يورد بعض الآيات المتعلقة بنشأة الإنسان وخلقه لا يعلم شيئا. وتزويده بمواهب السمع والبصر والعقل، وخلقه ضعيفا و وجود هذه المواهب –مع هذ الضعف– يتيح له مع التربية أن يرتقي لدرجة أن يسخر قوى الطبيعة والأحياء الموجودة فيها لمصلحته؛ وهذه المواهب تقتضي كذلك الشكر للواهب جل وعلا، والشكر فعل اختياري يصدر من الفرد بعد تعليم وتربية على هذه المواهب التي هي وسائل الإنسان وآلاته التي يستخدمها فيما خلقت له من العلم المضار والمنافع والمفاسد والمصالح، ثم العمل بما يقتضيه هذا العلم للترقي في مدارج الكمال المقدر له أن يصل إليه؛ وكما أنعم عليه جل وعلا بهذه الأدوات التي يتوصل بها إلى المعرفة الكسبية أنعم عليه بمعرفة أعلى وأجل؛ تلك هي المعرفة المتمثلة في "الوحي" الذي أوحاه إلى أنبيائه ورسله، وهو لايمكن له أن يستفيد منها دون تعليم لها وتربية عليها؛ فالتربية مكانتها عظيمة في دين الفطرة الذي بعث به خاتم الأنبياء مربيا معلما؛ كما قال سبحانه: (**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والْحِكْمَةَ وإن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**) (سورة الجمعة :2) (التربية والتعليم ص 58- 63).

أهداف التربية:

كتب رشيد رضا مقالا بعنوان "إلى أي تعليم وتربية نحن أحرج؟!" انتقد فيه التعليم السائد في البلدان الإسلامية، ودعا إلى تعليم يكون له ثمرة ملموسة في تقدم المجتمعات ورقيها ورفعتها وتماسكها، ومن الأهداف التربوية التي أشار إليها في هذه المقالة ما يلي:

1- تقوية الرابطة الإسلامية والوطنية بين المسلمين وإزالة أسباب الفرقة والعداوة وإحلال التآلف والتعاون محل التنافر والتشتت؛ إذ يقول: "نحن أحوج إلى التربية والتعلي اللذين يشعران قلوبنا معنى الأمة والوطن والجنس، إذ لسنا الآن إلا أفرادا متبددين متفرقين متنافرين متخاذلين متدابرين متنازعين متباغضين، لا جامعة تجمعنا، ولا رابطة تضمنا وتربطنا". (المنار مجلد1 ج16 ص 278، 16 صفر 1316هـ).

2- حماية اللسان العربي الفصيح، والمحافظة على نقاء اللغة، وإثرائها بنقل العلوم المعاصرة إليها بدلا من تركها ودراسة تلك العلوم بلغاتها الأوروبية.

3- تقوية الوازع الأخلاقي والالتزام بالأخلاق التي تقوي تماسك المجتمع وإيثار أفراده بعضهم بعضا بدلا من أخلاق الأنانية والانتهازية.

4- تنمية الاستعداد للتضحية في نفوس الأجيال في سبيل رفعة المة ومنفعتها. (المنار مجلد1 ج16 ص278، 16 صفر 1316هـ).

أقسام التربية:

يقسم رشيد رضا التربية من ناحية الميدان أو المجال إلى تربية جسدية ونفسية وعقلية، ويقسمها من ناحية المكان إلى تربية منزلية ومدرسية، ومن ناحية المربي يقسمها إلى تربية الوالدين للأبناء وتربية الأساتذة للتلاميذ وتربية الفرد لذاته؛ كما يقسمها من ناحية متلقي التربية إلى تربية الأفراد وتربية الأمم، ويذكر كذلك من أقسامها التربية الدينية وتربية استقلال الفكر والإرادة. (التربية والتعليم ص57).

تربية الأمم:

تربية الأمم يقصد بها: "إحداث إنقلاب عام فيها ونقلها من طور إلى طور أعلى منه وأرقى في الحياة المادية والمعنوية" (التربية والتعليم ص64)، ولفظة "انقلاب" هنا يتضح من كلامه أنه انقلاب معنوي؛ وليس ماديا يقوم على العنف ومصادرة حريات الناس؛ فهذا أبعد ما يكون من مراده؛ وإنما هو انقلاب في العقائد والمفاهيم والقيم والسلوك، وهذا هو موضوع التربية؛ ويمكن تحقيقه عن طريق التربية ووسائطها المتعددة؛ ولا ريب أنه عمل شاق يحتاج إلى وقت؛ ولذلك وصفه بأنه "أشق الأعمال البشرية وأرقاها"، وهذه التربية تعتمد على مقومات ضرورية لابد من توافرها؛ وقد حددها بما يلي:

1- علم صحيح واسع يقل في الناس من يتقنه.

2- بصيرة نافذة يندر في البشر من يؤتاها.

3- أعوان كثيرون من أهل هذه البصيرة والعلم.

4- تعاون وإخلاص بين هؤلاء الأعوان.

ومثل هذه التربية التي تقوم على التدرج والنفس الطويل يقوم بها المصلحون عادة؛ كالعلماء المجددون؛ وقد وجد في الأزمنة الحاضرة علوم مدونة تساعد هؤلاء؛ وهي علوم مقتبسة من الكتب الدينية ومن التاريخ ومن التجارب البشرية المشتركة؛ ومع كثرة من يتقنون هذه العلوم إلا أنه يصعب عليهم –كما يقول- : "أحداث انقلاب سريع أو تغيير في أحوال

أمة من الأمم البدوية دع الأمم الحضرية؛ وإنما يحاولون مثل هذا التغيير بإنشاء المدارس الكثيرة وتعميم التربية والتعليم وتعاقب القائمين بذلك عدة أجيال". (التربية والتعليم ص 65).

وأعظم مرب عرفته البشرية أحدث هذا الإنقلاب الجذري في المفاهيم والعقائد والأخلاق والسلوك هو خاتم الأنبياء عليه أفضل الصلاة والسلام؛ يقول رشيد رضا: "إذا تصفحنا تاريخ البشر رأينا أن أبدع مثال وأغرب صورة من يمثل تربية الأمم وصورها هو ما كان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم" (المرجع السابق ، ص66). وهذا مع أنه أمي نشأ في بيئة أمية، لا يعرف الكتابة فيها بعثته إلا بضعة رجال لم يتعلموها في مكة؛ لأنه لم يكن بها أي مدرسة؛ وغنما تعلموها خارجها من خلال أسفارهم في التجارة!، وقد تم له عليه الصلاة والسلام التغيير والتبديل العظيم في حياة الجيل الذي عايشه قبل أن ينقرض ذلك الجيل؛ وذلك بهدي القرآن وحكمة النبي صلى الله عليه وسلم؛ ولما انتقلوا خارج المدينة محاربين أو مسالمين ربوا أهل البادية وأهل الحاضرة من الشعوب الأخرى على ما تربوا عليه، وذلك عن طريق القدوة الحية المتمثلة في حياتهم الواقعية؛ وهذه معجزة نبوية بل :"آية علمية عملية تدل على التأييد الإلهي دلالة عقلية حسية". (المرجع السابق ص67، 68).

تربية البيوت والأمهات:

يقول علمنا: "تربية البيوت هي الأساس الذي يبني عليه ما بعده" (المرجع السابق ص74). ثم يذكر أن هذه التربية تقوم بها –في العادة– الأمهات؛ ولكن الأمهات في مجتمعات المسلمين لم تعد –كما كانت في السابق– عارفة بدينها ولغة دينها واعية بواجباتها ومسؤولياتها قائمة بتربية أبنائها على الخير والفضيلة؛ وإنما أصبحت جاهلة "بكل ما تتوقف عليه التربية من العلوم والآداب الدينية والدنيوية" وفاقد الشيء لا يعطيه؛ فلن تقوم لهذه التربية قائمة ما لم نربي النساء ونعلمهن ما تعتمد عليه تربية أبنائهن وما تقتضيه من مؤهلات معرفية وعملية.

وينقد رشيد رضا دعوة ورغبة بعض المسلمين في تعليم نسائهم على الطريقة الأوروبية ويصفه بأنه: "جهل بعلم الاجتماع وطبائع الأمم عظيم، وخطأ في علم التربية والأخلاق كبير، والصواب أننا نهدم بهذا التقليد مقوماتنا ومشخصاتنا الملية والقومية...." (المرجع السابق ص75). ثم يدعو في مقابل ذلك إلى تربية البنات (أمهات المستقبل) على الآداب الإسلامية، والفضائل والأحكام الشرعية، ونعلمهن لغتنا وتاريخنا وعلم التربية وتدبير المنزل، وما إلى ذلك.

وينقد كذلك تصرف بعض الكبراء بتسليم أطفالهم من البنين والبنات إلى المربيات الأجنبيات يتولين تربيتهم على قيمهن ولغاتهن ودينهن، وهذا يشكلهم تشكيلا في غير

مصلحة مجتمعهم ودينهم؛ ويقول إنما المطلوب "تربية نكون بها أمة حية عزيزة متجددة كغيرنا من أمم الحضارة، ولن ندرك هذا بمثل هذا التفرنج التقليدي" (المرجع السابق ص78).

تربية المدارس:

يدعو علمنا إلى العناية بالتربية المدرسية؛ لأن التربية الأساسية التي تقوم بها الأمهات متعذرة بسبب جهل النساء وعدم قيامهن بها، ونتيجة ذلك أن سرت إلى أخلاق الصغار مفاسد وإلى عقولهم خرافات وأباطيل؛ وعلى ذلك فيجب أن نتلافى ذلك من خلال التربية المدرسية التي يجب أن تتولى تربية عقولهم على الاستقلال في الفهم والاقتناع الذاتي بعيدا عن التبعية والتقليد؛ ولكن المدارس أيضا تفتقر إلى المعلمين الأكفاء القادرين على هذه التربية، ويدعوا مدراء المدارس والمعلمين إلى محاولة القيام بما يستطيعونه في سبيل تحقيق تربية نفسية وعقلية مجدية. (المرجع السابق ص 79، 80).

تربية المرء لنفسه (التربية الذاتية):

يبدوا أن مصطلح "التربية الذاتية" لم يكن شائعا معروفا في زمن رشيد رضا، ولذلك سماها "تربية المرء لنفسه" والمقصود واحد؛ ولا مشاحة في الاصطلاح كما يقال، وتربية المرء لنفسه –كما يوضح– ضرورة ملحة؛ لأن المدارس مقصرة في أداء دورها؛ ولأنها من ناحية أخرى لا تستطيع أن تعلم الطلاب كل شيء؛ وإنما تدلهم على العلوم و على أبوابها، وعليهم هم إكمال بقية المشوار بجهدهم الذاتي في تربية أنفسهم وتكميلها لينالوا "الكمال الممكن"، ويوجه خطابه إلى الطلاب النجباء حاثا لهم على ذلك بقوله: "ربوا عقولكم على الاستقلال في أنفسكم والاستدلال على المطالب، لتكونوا علماء بأنفسكم لا نقلة تحكون علم غيركم، ليكن العلم صفة من صفاتكم لا صورا خارجية تعرض على مرآة أذهانكم، ربوا أنفسكم على الفضيلة والتقوى وعلو الهمة وقوة الإرادة ومضاء العزيمة لتكونوا كملة في أنفسكم وقدوة صالحة لأمتكم" (المرجع السابق ص 82، 83).

وهو يحمل المتعلمين في المدارس العالية مسؤولية خدمة الأمة وبذل النفع المتعدي للغير، وأن يكونوا قدوة لغيرهم من أفراد مجتمعهم في الالتزام الأخلاقي والأدبي والقيام بما تقتضيه المصلحة العامة والمساهمة في تربية المجتمعات ورفع شأنها؛ ولذلك يحثهم على تربية أنفسهم بقوله: "فيجب أن تراعوا في تربيتكم لأنفسكم نسبتكم إلى أمتكم ونسبتها إليكم وأن تتقوا التقليد الذي يبعدكم عن مقوماتها ومشخصاتها، وتوخوا أن تكونوا معها كبيوت النحل المسدسة الشكل؛ لكي يتصل بعض طبقاتها ببعض، وإن تمايزت الطبقات أو الأفراد في أنفسها في العلم والحكمة كما تتمايز بعض بيوت النحل بوجود العسل فيها على ما لا عسل فيه" (المرجع السابق ص 85، 86).

فتربية المرء لنفسه يحركها شعوره بالواجب العام عليه وشعوره بمسؤوليته الاجتماعية عن بني مجتمعه وأمته؛ أو هكذا يجب أن يكون.

وأما طريق تربية المرء لنفسه فيرسمه بقوله: "أما الطريق الذي ينبغي أن يسير عليه المرء في تربية نفسه فهو (أن) يلتزم الأعمال التي تطبع ملكتها في النفس ويتكلفها ويواظب عليها، ولا يتساهل في كبير ولا صغير منها، وأن يجعل له مراقبا من إخوانه يذكره إذا نسى ويوبخه إذا تساهل....." (المرجع السابق ص91).

ويتضح من قوله هذا تركيزه على الإرادة الجادة وتدريب (أو ترويض) النفس على مشقةالأعمال وعدم التساهل فيها؛ والاستعانة في ذلك ببعض الزملاء أو الأصدقاء. ويضرب لذلك مثلا من نفسه مع رفيق له في طلب العلم؛ إذ طلب من ذلك الصديق أن يمسك عليه كذبة واحدة، فإذا أمسك عليه كذبة يعطيه ما يطلب؛ قال له ذلك وهو خائف على نفسه من فلتات لسانه أو نزغات شيطانه؛ ولكن دفعه إلى ذلك الرغبة في أن يكون ذلك "حاملا له على شدة الاحتراس من الكذب الذي هو شر الرذائل وأشدها ضررا" كما يقول، ويذكر أن ذلك الصديق لم يمسك عليه كذبة طوال معاشرته له. (المرجع السابق ص 92).

التربية على الفضيلة:

يناقش رشيد رضا تحت عنوان "الفضيلة والتربية الدينية" الأساس الذي تبنى عليه الفضيلة وتقوم عليه الأخلاق؛ هل هو أساس ديني أو أساس عقلي فلسفي؟! ويعرض الآراء في ذلك موضحا وجهة نظره بقوة لا تردد فيها بقوله: "لا فضيلة إلا بالدين؛ فمن لم يترب تربية دينية لا يكون علي شيء يعتد به من مكارم الأخلاق" (المرجع السابق ص92).

وهو في ذلك يرد على بعض المربين الغربيين ومقلديهم الشرقيين في قولهم إنه بالإمكان الاستغناء عن الدين في تربية النفس وبالإمكان إقامة بناء الفضيلة على أساس العلم والعقل؛ وذلك بإقناع الأفراد بأن الرذائل ضارة للفرد والمجتمع، وربط الفضيلة في أذهانهم بالمصلحة العامة والمنفعة المباشرة؛ كأن يقال للفرد بأن الكذب يؤثر على مكانتك الاجتماعية، ويضعف الثقة فيك فتفوتك فرص عملية كثيرة ويحتقرك الناس .....الخ، ويقال له بأن الأمانة ترفع قدرك في المجتمع وتكسبك السمعة الحسنة وتسوق لك الفرص، وهكذا بقية الفضائل والرذائل؛ ويزعم هؤلاء أن هذا الإقناع المادي العملي أجدى من التربية الدينية التي تقوم على التخويف من عقاب الآخرة. (المرجع السابق ص 93، 94) وأيضا (المنار مجلد 10 ج2 ص123 صفر 1325هـ).

وسبب إتباع هذه الأفكار في أوروبا أنها جاءت كرد فعل لاضطهاد الكنيسة لرجال العلم، فنفروا عن كل ما يرتبط بها، ولجئوا إلى العقل والفلسفة مرجعا بديلا لهم؛ ومع ذلك

يوجد منهم من لا يزال يربي أبناءه تربية دينية، ومنهم من يرى أن التربية الدينية أجدى في غرس الفضيلة في النفوس؛ ومن هؤلاء عالم الاجتماع والتربية "سبنسر" الذي يقول كما ينقل عنه رشيد رضا: "إن بعض الناس يريدون تحويل تربية الفضيلة عن أساس الدين إلى أساس العلم، وإذا وقع هذا بالفعل يقع به الناس في فوضى أدبية لا يعلم أحد عاقبتها" (المرجع السابق ص95، 96).

والشيخ رشيد يقول إن النظر والتجربة تثبت أن الإقناع المجرد بنفع الفضيلة وضرر الرذيلة لا جدوى منه ولا سبيل إليه؛ فالصغار قد لا يعقلون ذلك، والكبار منهم أغبياء لا يقتنعون بالكلام المجرد في مقابل ما يرونه فائدة محسوسة للرذيلة، ومنهم أذكياء يستخدمون ذكاءهم في الاحتيال على اخذ حقوق غيرهم ويوجدون لأنفسهم المبررات والمعاذير ولن يردعهم مجرد الاعتقال بأن الفضيلة نافعة والرذيلة ضارة، وقد يتأثر تقدير الإنسان أو تفسيره للفضيلة والرذيلة برغبته وهوى نفسه، ويضاف إلى ذلك اختلاف الناس في معاييرهم الشخصية للفضائل والرذائل، ويثبت الشيخ بطلان هذه النظرية بما تتضمنه إحصاءات محكمة الجنايات في باريس؛ حيث ينقل ما ذكر جوستاف لوبون في كتابه روح الاجتماع عن بعض قضاة المحكمة قوله بأن ثلاثة أرباع المجرمين الذين حكمت عليهم المحكمة هم من المتخرجين في المدارس العالية وربعهم فقط هم من العامة، ويقول رشيد رضا: "لا يكاد يتعفف عن الرذيلة أحد تدفعه شهوته إليها وتقربه أسبابها منها إلا المتدين الذي يراقب الله تعالى ويخشاه أو الفيلسوف العالي النفس إذا ثبت عنده أنها رذيلة، وإلا فإننا نرى سيرة كثير من الفلاسفة مملوءة بالرذائل الكثيرة...." (المرجع السابق، ص 97- 100).

فالرادع الحقيقي الذي يردع النفس عن الرذائل هو رادع العقاب الأخروي؛ كما أن الحافز لها على مباشرة الفضائل هو حافز الثواب الأخروي؛ ويورد الشيخ قصة لها دلالتها بهذا الشأن؛ وهي قصة فقير بائس من أهل بلدته "القلمون" كان يعيش حياة شظف ومعاناة، ولما وجد مرة كيسا مملوءا ذهبا وهو في مكان خال من الناس حمله معه، ولما رأى رجلا روميا يركض باحثا عنه ناداه وسلمه له ولم يأخذ منه شيئا، وهذا الرومي معروف بشره وخبثه؛ فلم يعطه من الكيس شيئا مكافأة له؛ ولما سئل ذلك الفقير عن سبب فعله هذا قال: "إذا كان هو لو يعلم أنني أخذت الكيس فإن الله عالم بذلك وهو مطلع علي" 0المرجع السابق ص 101، 102).

وهذا يوضح قوة وازع الدين في تربية النفس على الفضيلة.

التربية الإرادية:

تحدث عن هذا النوع من التربية تحت عنوان "العزيمة وتربية الإرادة"، وذكر أنها مع شدة الحاجة إليها هي نادرة الوجود؛ بل إنه يكاد يغيب تفكير الكثير منا فيها وفي أهميتها وفي أهمية إحكام التنشئة عليها، وقد حث أجيال الطلبة خاصة على الحرص عليها؛ ويكفي هنا نقل جزء مما قاله في الحث عليها؛ يقول: " لايتفاضل الناس في شيء تظهر به مزاياهم كتفاضلهم في قوة الإرادة. وما آتى الله الإنسان قوة يعلو بها شأنه ويظهر بها استعداده كقوة الإرادة. بقوة الإرادة تصرف الإنسان في الطبيعة وسخر لمنافعه أنواع الخليقة، وعمل بعض أفراده من الأعمال ما لا تعمله الأمم في الأجيال" (المرجع السابق ص 114، 115). ويقول:

"اعلموا أن من فقد إرادته فقد نفسه، وكان آلة في يد غيره أو تابعا لهوى نفسه، ولا يمكن أن يكون رجلا عظيما، ربوا إرادتكم بحملها على ترك الهوى الباطل وتعويدها حمل المكارة في سبيل الحق والخير لتكونوا مالكين لأنفسهم لا مملوكين لها، ومن كان عاجزا عن التصرف في نفسه فهو جدير بأن يكون أعجز عن غيره، ضعيف الإرادة لا يكون إلا نذلا جبانا، والجبان لا يكون إلا خائنا أو منافقا، فعليكم بالشجاعة والعزيمة والنجدة وعلو الهمة، فبغير هذه الصفات لا تظهر مزايا الإنسانية فيكم، لا تهولنكم الواجبات التي تطلبها الأمة منكم، فإن الإرادة الصادقة لا يقف أمامها شيء، الإرادة الصادقة أعظم قوة خلقها الله في هذه الأرض فلا تغفلوا عن تربيتها في أنفسكم والاستفادة منها في بلادكم، وقل من صدقت إرادته في طلب شيء لم ينله؛ اللهم إذ طلبه من أسبابه ودخل عليه من بابه...." (المرجع السابق ص 116، 117).

ومن خلال هذا النص وما تضمنه من وصف للإرادة الصادقة وأهميتها في الحياة على مستوى الفرد وعلى مستوى الجماعة يقف القلم عاجزا عن إضافة شيء إلى ما ذكره في بيان مكانتها ودورها وأهمية التربية عليها وعظم الخسارة في التفريط بشأنها.

التربية الأخلاقية:

يعلق شيخنا أهمية كبيرة على التربية الأخلاقية؛ أو تهذيب الأخلاق كما يسميها فهي سبب الفوز بالحياة الطيبة؛ تنال بها السعادة، ويكون عليها مدار انتظام حياة الأفراد والجماعات والأمم، وبفقدها يختل توازن الحياة، وتنفصم عرى التجمعات، وتنحط الأمم درجات. والأخلاق ترتبط بالأعمال وتؤثر فيها حسنا أو قبحا؛ مدحا أو ذما، ولا يجهل هذا الارتباط بينهما إلا من جهل معنى الأخلاق، والأخلاق –كما يقول– جمع خلق (بالضم) وهو صفة للنفس، كما أن الخلق (بالفتح) صفة الجسد"، وينقل عن علماء

التهذيب تعريفا للخلق بأنه: "هيئة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال بسهولة من غير حاجة إلى روية ولا تفكر".(المنار، مجلد1 ج4 ص69 ذو القعدة 1315).

ويشرح هذا التعريف بقوله: "وبيان هذا أن الإنسان إذا عمل عملا يحدث لعمله أثر مخصوص في مركز مخصوص من دماغه، وكلما أعاد العمل يقوي الأثر حتى يصير المركز العصبي هو الذي ينبه لذلك العمل ويزعج الأعضاء لفعله كلما جاء وقته أو عرض سببه فيندفع الإنسان لفعله بلا روية ولا تكلف، وهذا هو الذي يسمى الخلق والملكة". (المنار، مجلد2 ج28 ص433، 17 جمادي الآخرة، 1317).

وهذا التعريف ينسب إلى أبي حامد الغزالي كما في بعض كتب التربية؛ وهو موجود فعلا في كتابه إحياء علوم الدين؛ ولكن السؤال هل سبق إليه؛ أم أنه هو الذي وضعه؟ لاشك أن الإجابة –بالنسبة للباحث على الأقل– تحتاج إلى بحث.

ويبدوا أن رشيد رضا يرى أن الفضيلة هي "وسط بين طرفين"؛ وهذا الوسط هو العدل" وهو: "غاية تهذيب الأخلاق؛ بل هو المحور الذي تدور عليه سيارات الفضائل"، وما عداه إفراطا أو تفريطا فهو "الجور"؛ والجور خلق ذميم، وهو سبب الفساد بالنسبة للأفراد والدول.

ثم يبين مكانة الخلق الحسن بأنه "ثمرة الأديان السماوية والشرائع الإلهية بدليل قوله صلى الله عليه وسلم (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)" وأن القرآن جاء بالحث على مكارمها والتحذير من سفاسفها، والتحفيز إلى التخلق بالخلق الحسن عن طريق الثناء على المتصفين به للتأسي بهم، وذم فاسدي الخلاق للتنفير من صنيعهم، ثم يورد طائفة من الأحاديث الشريفة في فضل سن الخلق والترغيب فيها. (المنار، مجلد1 ج4 ص69 ذو القعدة 1315).

ثم يبين شيئا عن طرق التربية الأخلاقية؛ وهي أن الأخلاق الفاضلة يمكن أن تكون راسخة في النفس ظاهرة في السلوك عن طريق التعويد والمران والمراقبة بالنسبة للصغار؛ وأما بالنسبة للكبار الذين يراد إحلال الأخلاق الحسنة محل أخلاقهم السيئة فإن هذا لا يكون بالوعظ المجرد والكلام المجمل؛ وإنما يكون يكون بالإقناع المفصل الذي يوضح من خلاله شرعا وعقلا ما تنطوي عليه العادات والأخلاق السيئة من ضرر في الدين والدنيا؛ ثم يكون الأمر بعد ذلك منوطا بالشخص نفسه؛ حيث أنه مع ما حياه الله من عقل فإنه قد زوده بإرادة بموجبها يحاول تكلف فعل الخلق أو العادة أو العمل الحسن، ويواظب على ذلك حتى يستبدل فعلا بفعل وعادة بعادة وخلقا بخلق؛ الحسن مكان السيء، ولا ريب أن من يكون

مؤهلا لذلك هم أصحاب الفطر السليمة والعزائم الصادقة؛ ومع ذلك يمكن له الاستعانة بوسيلتين:

الأولى: المداومة على استحضار قبح الرذائل المراد تركها، وحسن الفضائل لمراد فعلها في الذهن.

الثانية: الإذن لبعض الأصدقاء والمقربين بمراقبة سلوكه وتنبيهه إذا عاد لعاداته السيئة وتأنيبه عند الحاجة. (المنار، مجلد2 ج28 ص433، 17 جمادي الآخرة، 1317).

نتائج الدراسة:

في نهاية هذا البحث يحسن إجمال أهم النتائج التي توصل إليها الباحث من خلال هذه الدراسة؛ وذلك كما يلي:

1- أن محمد رشيد رضا اهتم كثيرا بقضية إصلاح المجتمعات العربية والإسلامية؛ وأنه كان يعول كثيرا في هذا الإصلاح على دور التربية والتعليم؛ ومن هنا فإنه سعى بكامل طاقته وجهده نحو إصلاح التربية والتعليم.

2- أن سعيه لإصلاح التعليم اتخذ عدة أنشطة عملية؛ كتأسيس معهد الإرشاد؛ ومباشرة التعليم بنفسه، والتوعية بشؤون التربية والتعليم عن طريق إصدار مجلة المنار التي كان يحرر أغلب موادها، ومباشرته إلقاء الخطب وتدبيج المقالات وكتابة الكتب حول التربية والتعليم وشؤونهما.

3- أن كتاباته ومقالاته في مجلة المنار التي استمرت في الصدور ما يقارب الأربعة عثقود كانت في الأغلب ذات طابع تربوي في مضمونها ومحتواها وفي أهدافها وغاياتها وفي معالجاتها واتجاهها.

4- أن روح النقد التربوي في سبيل تحقيق تعليم ناجح وتربية فعالة كانت تسري في كثير من هذه المقالات والكتابات؛ مما أكسبها نوعا من التميز والاستقلال الفكري لكاتبها في ميدان الفكر التربوي.

5- أن نقده التربوي كان ممزوجا بعاطفة جياشة تظهر منها غيرته الشديدة على المجتمعات العربية والإسلامية ورغبته القوية في صد عوامل الضعف والفساد ومقاومة رياح التغريب والهيمنة الأجنبية عنها.

6- احتلت المرأة وتعليمها وتربيتها وإعدادها لتربية الأجيال مكانة بارزة في هذه الكتابات والمقالات إلى الحد الذي يجعل من المناسب أن يخصص بحث مستقل لدراسة موضوع تربية المرأة وتعليمها عند محمد رشيد رضا.

7- أن مقالاته وكتاباته التربوية كانت ذات أفق واسع ارتفعت به عن الإقليميات الضيقة أو القوميات المحدودة؛ حيث كان ينشد فيها الخير والتقدم والسعادة للجميع داخل مصر وخارجها؛ كالهند وإندونيسيا وأواسط آسيا وغيرها.

8- أن أفكاره التربوية توزعت على موضوعات تعليمية وتربوية عديدة؛ كالطبيعة الإنسانية، والعلم ومصادره ومراتبه ومناهجه، والتعليم ومراحله ومؤسساته ومناهجه وطرائقه، والتربية وأنواعها وعوائقها وعوامل نجاحها وإخفاقها، والمربي أو المعلم وسماته ومؤهلاته ونجاحه أو إخفاقه؛ وما إلى ذلك من الموضوعات.

مراجع البحث

1- البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، استانبول: دار الدعوة، 1401هـ.

2- ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد، الأخلاق والسير في مداواة النفوس، بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1399هـ.

3- رضا، محمد رشيد. التربية والتعليم، عليكرة (الهند): المطبعة الأحمدية، 1330هـ.

4- رضا، محمد رشيد. تفسير القرآن الكريم الشهير بتفسير المنار، بيروت: دار المعرفة، د.ت.

5- رضا، محمد رشيد. فتاوي محمد رشيد رضا، جمع وتحقيق صلاح الدين المنجد ويوسف ق خوري، بيروت: دار الكتاب الجديد، 1390هـ.

6- رضا، محمد رشيد. مجلة المنار، أعداد متفرقة مذكورة داخل متن البحث.

7- الرومي، فهد عبد الرحمن. منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1401هـ.

8- الزركلي، خير الدين، الأعلام بيروت: دار العلم للملايين، 2007م.

9- السواط، عبد الإله عبيد. الفكر التربوي عند محمد رشيد رضا، رسالة ماجستير في التربية قدمت لجامعة أم القرى، 1992م.

10- الشدوخي، سعد بن عبد الكريم. حاجتنا إلى مناهج إسلامية، مجلة البيان، العدد 173، محرم 1423 هـ.

11- علي، سعيد إسماعيل. التجديد والإصلاح في الفكر التربوي الإسلامي (ضمن أبحاث مؤتمر اتجاهات التجديد والإصلاح في الفكر الإسلامي الحديث 19 - 21 م 2009/1م) مكتبة الإسكندرية: 2009م.

12- المراكشي، محمد صالح. تفكير محمد رشيد رضا من خلال مجلة المنار، تونس: الدار التونسية للنشر، 1985م.

13- النيسابوري، مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، استانبول: دار الدعوة، 1401هـ.